الدلائل والاعتبار على

الخلق والتدبير

تأليف

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

[٢٥٥هـ]

قدم له وعلق عليه

مجدي فتحي السيد

دار الصحابة للتراث بطنطا

لدار الصَّحَابَةِ لِلتُّرَاثِ بطنطا

للنَّشر - والتَّحقيق - والتوزيع

المُرَاسَلات:
طنطا ش المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب: ٤٧٧

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

تقــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ...

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

قال عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (*) .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ، واتَّقُواْ الله الَّذِى تسآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ (**) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُواْ اتَّقُواْ الله وَقُولُواْ قَوْلاً سَديداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ (***) .

(*) سورة آل عمران : الآية : ١٠٢ .

(**) سورة النساء : الآية : ١ .

(***) سورة الأحزاب : الآية : ٧٠ ، ٧١ .

بين يدى الكتاب

فى البدء أقول : لعله لم يدع أى كتاب مقدس إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض كما دعا إلى ذلك القرآن الكريم .

فلله تبارك وتعالى فى الكون كتابان ، كتاب ناطقٌ وهو القرآن الكريم ، وآخر صامت وهو هذا الكون العظيم بسمواته وأرضه ، وشمسه وقمره ، ومخلوقاته .

وعندما يتأمل المرء المسلم فى الكتاب الصامت يزداد إيمانه ، ويرى عظمة خالقه ، وحسن تدبيره ، وعظمة قدرته .

فهذه السموات المبنية ، وبالأفلاك والنجوم مكتظة ، وبالكواكب السيارة مزدحمة ، وهذه الأرض المطوية ، بما فيها من جبالٍ وتلال ، وسهولٍ ووديان ، وبحارٍ وأنهار ، وجماد وإنسان ، ونبات وحيوان .

كل ذلك ينادى إن الخالق هو الواحد القهار عز وجل .

وكل ذلك يقول للإنسان ألا تتفكر ؟! ألا تتدبر ؟!

أخى المسلم ... أختى المسلمة

إن التفكر فى ملكوت السموات والأرض هو أسهل وأيسر الطرق التى توصل الإنسان إلى معرفة خالقه ، ورازقه ، وفاطره تبارك وتعالى .

إن التفكر فى عظمة المخلوقات دليلٌ على عظمة الخالق ، وقدرته .

يذكر أصحاب التراجم أن أحد الملحدين جاء إلى أبى حنيفة رحمه الله ، وأخذ يجادله فى وجود الله تعالى .

قال الملحد : هل من دليلٍ تقنع به عقلى بعيداً عن قرآنكم الذى لا أؤمن به ؟

كان الإمام جالساً آنذاك فى مجلس الخليفة أبى جعفر المنصور ، فتشاغل عن السائل قليلاً ، حتى ألح السائل على سؤاله .

وهنا قال أبوحنيفة : دعنى الساعة ، فإن لى سفينة ضخمة محملة بأنواع البضائع والأمتعة ، وقد أبحرت وحدها من الهند دون أن يكون فيها ملاحٌ ، ولا ربان ، وأنا أخاف عليها أمواج البحر ولجحه ، وما عسى أن يعترض طريقها من عقباتٍ وسدودٍ فتغرق بما فيها .

تعجب الملحد وقال : إنك تهرف بما لاتعرف ، كيف يصح فى العقل أن تبحر سفينة وحدها بدون ربان إلى هنا ، وترجو لها السلامة والنجاة ؟!

قال الإمام : أو ترى أن هذا مستحيل عقلاً ؟

قال الملحد : نعم ، لايتصور العقل ذلك .

قال أبوحنيفة : سبحان الله !! إذا لم يجز هذا فى العقول أن سفينة تسير من غير ربانٍ ولا ملاح ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وأعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير خالق لها ، عليم بها ، ومدبر لأمرها ؟!

وهنا قال الملحد : صدقت ، وألزمتنى الحجة ، وأسلم على يديه .

هكذا النظر فى الكون يؤدى إلى معرفة الخالق وعظمته .

لقد سئل الإمام الشافعى – رحمه الله – عن دليل عقلى يثبت به أن للكون رباً خالقاً ، فقال :–

إنى أستدل على هذا بشيءٍ صغيرٍ يتحول إلى أشياء مختلفة ، ومتناقضة مع أن أصله واحد .

فقالوا له : وما هو ؟

فقال الشافعى : ورقة التوت ، طعمها واحد فى شجرتها ، ولونها واحد ، وريحها واحد ، وطبعها واحد ، ولكن تأكلها دودة القز فتتحول إلى حريرٍ ناعم ، وتأكلها النحلة فتخرج من بطنها عسلاً شهياً ، وتأكلها الشاة والبقرة فيخرج منها بعراً وروثاً ، وتأكلها الظباء والغزلان فينعقد فى بطنها نوافج المسك .

فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الأصل واحد ، وهو ورقة التوت ؟!

ورحم الله ذلك الأعرابى الذى قيل له : هل رأيت الله الذى تعبده ؟

فقال : ياقوم ، ألا تنظرون إلى الأرض وما عليها ، والبحار وما فيها ، والأفلاك وحركاتها ، والكواكب وأجرامها ، والرياح وماتسوقه إليكم من سحاب .

يا قوم ، إن البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على العليم الخبير ؟!

ويقول الشاعر العربى :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصارٍ هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يجمع لنا الأدلة ، ويحشد لنا البراهين ، ويبسط لنا الحجج ، ويذكر لنا الدلائل على عظمة الله وقدرته ، وحسن تدبيره فى خليقته .

فهذا بابٌ يناديك بالتفكر فى لون السماء ، وذاك فى طلوع الشمس وغروبها ، وهذا فى مقادير الليل والنهار ، وذاك فى النجوم وسيرها .

وهذا بابٌ يذكر لنا دلائل الاعتبار من خلق الحر والبرد ، والجبال ونزول المطر ، والطيور والحيوانات .

ويعلمك هذا الكتاب بعض العظات فى خلق الدجاجة والبيضة ، والنحل والعصافير ، والنمل والجراد ، والسمك وغيره .

ويوضح لنا كم هى عظيمة أفعال الله فى مخلوقاته ، فتأمل حكمة التدبير فى وصول الغذاء إلى بدن الإنسان ، وخلقه من ذكر وأنثى .

إن هذا الكتاب دعوة صريحة إلى التفكر فى آلاء الله ، فى عصر طغت فيه الماديات ، واستولت على قلوب أغلب الخلق ، إلا من رحم ربى ، وقليل ما هم .

لذا فلقد رأيت فى إحياء هذا الكتاب فى طبعة جديدة ، محققة عملاً يسهم فى زيادة القرب من الله تعالى ، وأرجو أن أكون قد أصبت فى اختيارى ، وحسبى أن الله يعلم ما فى الصدور ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مجدى فتحى السيد إبراهيم

ترجمة المصنف

[١] نسبه ونشأته :-

هو عمرو بن بحر بن محبوب ، الكنانى ، مولى أبى القلمّس ، أبوعثمان الفُقَمِى ولد فى سنة ١٥٠هـ فى البصرة .

نشأ فى أسرة فقيرة إلى حدٍ ما ، مع يُتمٍ من الصغر ، فكان فى كفالة أمه ، حتى إن الجاحظ كان يبيع الخبز ، والسمك ، عند سيحان وهو نهرٌ بالبصرة .

وبدأ حياته العلمية فى السماع من أبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأخذ النحو عن الأخفش أبى الحسن ، وكان صديقه ، وأخذ علم الكلام عن النظام .

ولقد تلقف الفصاحة من العرب شفَاهاً ، وكذا اللغة .

ومن الأمور التى اشتهر بها فى مبدأ طلبه للعلم أنه لم يقع بيده كتابٌ قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يؤجر دكاكين الورّاقين ليبيت فيها ليقرأ ما فيها من كتب العلم .

يقول إسماعيل بن إسحاق القاضى : إنى ما دخلتُ إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب ، أو يقلب كتباً أو ينفضها .

[٢] الجاحظ بين شيوخه وتلاميذه :-

لعل من مشاهير شيوخه : أبويوسف القاضى ، وحجاج الأعور ، وثمامة ابن الأشرس ، وروايته عنهم فى ثنايا كتابه الصخم « الحيوان » .

ومن أشهر تلاميذه : أبوالعيناء ، ويموتُ بن المزرَّع ، وهو ابن أخته ، وقيل : إن ابن أبى داود روى عنه .

[٣] الملكة الأدبية عند الجاحظ :

لقد عُرف الجاحظ عند أصحاب التراجم أنه العلامة المتبحر، ذو الفنون ، وذلك لأن ملكته الأدبية كانت فائقة ، وذلك لقوة ذكائه ، ومقدرته على الاستيعاب ، وتوليد الأفكار ، وابتكار طرق الحجج ، وقوة الخيال .

لقد استوعب الجاحظ ثقافة عصره ، وموضوعات وقته ، وجمع بين فكر العربية وخصائصها ، وفكر العجم وأساليبه وجمع بينهما فى اندماج مذهل جعله من نوابغ عصره فى الأدب .

[٤] ثناء العلماء عليه :-

قال الذهبى : « العلامة ، المتبحر ، ذو الفنون ، صاحب التصانيف » .

وقال أيضاً : « أخبارى علامة ، صاحب فنون ، وأدبٍ باهرٍ ، وذكاء بيِّن » .

وقال ابن كثير : « كان بارعاً فاضلاً ، قد أتقن علوماً كثيرة ، وصنف كتباً جمة ، تدل على قوة ذهنه ، وجودة تصرفه » .

وقال الخطيب البغدادى : « المصنف الحسن الكلام ، البديع التصانيف » .

وقال ياقوت الحموى : « كان الجاحظ من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف » .

وقال أبوبكر أحمد بن على : « كان أبوعثمان الجاحظ من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر ، فيه شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به ، وبغيره من علوم الدين والدنيا » .

[٥] مآخذ العلماء عليه :-

المأخذ الأول : الاعتزال ، والمعتزلة من الفرق التى ظهرت فى عهد بنى أمية ، وقد خالفوا السلف الصالح فى كثير من الأمور الاعتقادية .

لذا فقد قال الذهبى وغيره : كان من أئمة البدع .

المأخذ الثانى : المجون ، قال الذهبى : « كان ماجناً » .

وقال ابن حزم : « كان أحد المجان ، الضلال ، غلب عليه الهزل »

قلت : ولعل هذا كان فى مرحلة من مراحل الصغر والشباب .

المأخذ الثالث : اتهم بالكذب ، فلقد قال أبومنصور الأزهرى فى مقدمة تهذيب اللغة : وممن تكلم فى اللغات بما حصره لسانه ، وروى عن الثقات ماليس من كلامهم الجاحظ ، وكان أوتى بسطة فى القول ، وبياناً عذباً فى الخطاب ، ومجالاً فى الفنون غير أن أهل العلم ذبوه ، وعن الصدق دفعوه .

وقال ثعلب : كان كذاباً على الله ، وعلى رسوله ، وعلى الناس .

وقال الذهبى : يظهر من شمائل الجاحظ أنه يختلق ، فى النفس من حكاياته ولهجته ، فربما جازف ، وتلخطه بغير بدعة أمرٌ واضح .

المأخذ الرابع : التناقض أحياناً ، قال ابن خشبة فى اختلال الحديث ثم نصير إلى الجاحظ ، فنجده مرة يحتج للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزندقة على أهل السنة ، ومرة يفضل علياً ، ومرة يؤخره .

ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم يجوز للحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لايعرفون ، ويشكك الضعفة .

وأخيراً ربما كان بعض هذه المآخذ فيه ما يرد أو يدفع ، ولكن المؤمن دائما لاينظر إلا إلى الحق ، فيقبله ، وما عداه فيضرب به عرض الحائط ، والخير كل الخير فى اتباع من سلف ، والشر كل الشر فى ابتداع من خلف .

[٦] **مؤلفـــاته العلميـــة :-**

كان الجاحظ فى عصره موسوعة علمية ، لذا كانت تصانيفه كثيرة .

وهذه قائمة ببعض ما ذكر له من مؤلفاته ، وبعضها فى عداد المطبوعات ، والبعض الآخر فى عداد المخطوطات .

١ - كتاب « الحيوان » .

٢ - « البيان والتبيين » .

٣ - كتاب « النبى والمتنبى » .

٤ - كتاب « المعرفة » .

٥ - كتاب « الرد على أصحاب الإلهام » .

٦ - كتاب « نظم القرآن » .

٧ - كتاب « مسائل القرآن » .

٨ - كتاب « فضيلة المعتزلة » .

٩ - كتاب « الرد على المشبهة » .

١٠ - كتاب « الإمامة على مذهب الشيعة » .

١١ - كتاب « عصام المريد » .

١٢ - كتاب « الرد على النصارى » .

١٣ - كتاب « إمامة معاوية » .

١٤ - كتاب « إمامة بنى العباس » .

١٥ - كتاب « الفتيان » .

١٦ - كتاب « القواد » .

١٧ - كتاب « اللصوص » .

١٨ - كتاب « ذكر ما بين الزيدية والرافضة » .

١٩ - كتاب « صياغة الكلام » .

٢٠ - كتاب « المخاطبات فى التوحيد » .
٢١ - كتاب « تصويب على فى تحكيم الحكمين » .
٢٢ - كتاب « وجوب الإمامة » .
٢٣ - كتاب « الوكلاء والموكلين » .
٢٤ - كتاب « البخلاء » .
٢٥ - كتاب « الشارب والمشروب » .
٢٦ - كتاب « افتخار الشتاء والصيف » .
٢٧ - كتاب « أخلاق الملوك » .
٢٨ - كتاب « العرجان والبرصان » .
٢٩ - كتاب « المعاد والمعاش » .
٣٠ - كتاب « الحاسد والمحسود » .
٣١ - كتاب « السودان والبيضان » .
٣٢ - كتاب « التسوية بين العرب والعجم » .
٣٣ - كتاب « الأنس والسلوة » .
٣٤ - كتاب « الصرحاء والهجناء » .
٣٥ - كتاب « تحصين الأموال » .
٣٦ - كتاب « ذم الزنا » .
٣٧ - كتاب « العالم والجاهل » .
٣٨ - كتاب « الاستبداد والمشاورة فى الحرب » .
٣٩ - كتاب « القضاة والولاة » .
٤٠ - كتاب « النرد والشطرنج » .

إلى غير ذلك من المؤلفات التى أوصل بعضهم عددها إلى الثلاثمائة كتاب .

أخـيراً ...

وفى سنة خمسٍ وخمسين ومائتين فى خلافة المعتز توفى الجاحظ بعد عمرٍ مديدٍ ، فقد جاوز التسعين سنة .

ولمزيدٍ من التفصيل عليك بالرجوع إلى المراجع والمصادر التالية :

١ – الفهرست : (٢٠٨) ، (٢١٢) .

٢ – تاريخ بغداد : (٢١٢/١٢ ، ٢٢٠) .

٣ – نزهة الألباء : (١٣٢) .

٤ – معجم الأدباء : (٧٤/١٦ ، ١١٤) .

٥ – وفيات الأعيان : (٤٧٠/٣ ، ٤٧٥) .

٦ – ميزان الاعتدال : (٢٤٧/٣) .

٧ – العبر : (٤٥٦/١) .

٨ – البداية والنهاية : (١٩/١١) .

٩ – لسان الميزان : (٣٥٥/٤) .

١٠ – شذرات الذهب :(١٢١/٢) .

١١ – مروج الذهب : (٣٣/٨) .

١٢ – تذكرة الحفاظ : (١١١/٢) .

١٣ – بغية الوعاة : (٣٦٥) .

١٤ – مرآة الجنان : (١٥٦/٢) .

١٥ – إيضاح المكنون : (٢٥/٢) .

والحمد لله رب العالمين

توثيق نسبة الكتاب
إلى مؤلفه

لايوجد لدى الذى يتتبع مؤلفات الجاحظ أدنى شك فى صحة نسبة هذا الكتاب إليه ، ولعل أسطع برهان على ذكر هذه الصحة هو إيراد الجاحظ له ضمن قائمة مؤلفاته التى ذكرها فى بداية كتابه الضخم « الحيوان » .

١ - ولقد ذكره ياقوت الحموى فى معجمه للأدباء (١٠٨/١٦) بعنوان « التفكر والاعتبار » .

٢ - وذكر الزركلى فى أعلامه (٧٤/٥) هذا الكتاب ضمن مصنفات الجاحظ .

ومن العجيب أن الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله قد استفاد من هذا الكتاب استفادات جمة فى كتابه مفتاح دار السعادة ، ولم يشر إلى هذا الكتاب !!

وأعجب من هذا أن الغزالى صاحب الإحياء ألف كتابه « الحكمة فى المخلوقات » وهو أصلٌ ثانٍ لكتابنا هذا ، ولم يشر إليه أيضاً !!

النسـخة المعتمد عليها فى التحقيق

يسّر الله تعالى بفضله ومنه عثورى على نسخة عتيقة من هذا الكتاب ، وقد قام بطبعها الأستاذ محمد راغب الطباخ الحلبى ، الذى كان له جهد مشكـور فى إحياء الكثير من كتب التراث .

ولقد طبعت هذه النسخة الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هجرية ، و١٩٢٨ ميلادية فى المطبعة العلمية بحلب ، لصاحبها محمد الطباخ .

وفى نهاية الكتاب قال مايلى نصه :-

تم بتوفيقه تعالى طبع هذا الكتاب الجليل الذى يرشدك إلى حكمته تعالى فى هذه المخلوقات لتتدبر معنى قوله فى الكتاب المبين :-

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾

وتعى معنى قول الشاعر :-

وفى كل شـىء له آية   تـدل على أنـه واحـد

وقد عثرت على نسخته فى مكتبة المدرسة العثمانية فى مدينة حلب فاستنسخته بخطى ، ولم آل جهداً فى تصحيحه ، وكان تمام طبعه فى التاسع والعشرين من شهر شعبان ١٣٤٦ ، وبالله التوفيق ..

ناشـره

محمد راغب الطباخ

عمـلى فى الكتـاب

بعد عثورى على نسخة عتيقة من الكتاب طبعت فى سنة ١٣٤٦ هجرية ، الموافق ١٩٢٨ ميلادية ، وطبعها محمد راغب الطباخ الحلبى على نفقته فى مطبعته العلمية بحلب ، تم التالى :

١ – قمت بالتقديم للكتاب بالحديث عن موضوعه ، ومؤلفه ، وصحة نسبة الكتاب إليه .

٢ – قمت بعمل الحواشى اللغوية التى تساعد القارىء على الوصول إلى معرفة المراد من النص .

٣ – ذكرت بعض التعليقات ، والتعاريف ببعض الأعلام الذين ورد ذكرهم فى الكتاب .

٤ – قسمت الكتاب إلى فقرات ، وراعيت الفواصل ، ووضعت الهمزات لخلو النسخة الأولى من ذلك .

٥ – أصلحت ما كان فى النسخة الأصلية من تحريفات أو تصحيفات .

والحمد لله رب العـالمين ..

مجـدى فتحى السيد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله وعلى جميع أنبيائه

قال أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ : إن ناساً حين جهلوا الأسباب والمعانى وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها بإهمال لاصنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب ، ووضع كل شيء من ذلك فى موضعه على صوابٍ وتقديرٍ فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار ، وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه ، وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر ، وتسخط وذم الدار وبانيها .

فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى إتقان خلقته ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه ، والأرب فيه فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذى أقدمت عليه ، وجاهرت به المنانية[1] الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال .

فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، وقفة لتأمل هذه الخلقة ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها أن لا يقصر فى إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد فى نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان لتقوى دواعى الإيمان وتخيب مكيدة الشيطان فى تضليل الوهم محتسباً للثواب فى ذلك واثقاً بعون الله تعالى وتأييده إياه .

---

(١) المنانية نسبة إلى منان أحد الفلاسفة الفرس .

فقد تكفلنا جميع ما وقفنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم ، وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب ، والمعانى فى ذلك بمبلغ علمنا فى كتابنا وتوخينا إيضاح القول فيه وتنويره والإيجاز فيما شرحنا ليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ، ورجونا أن يكون فى ذلك شفاء للناكر المرتاب وزيادة فى يقين الموفق وبالله التوفيق . فأول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هى عليه . فإنك إذا تأملت العالم بفكرك ، وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع عتاده ، السماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منضودة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة فى معادنها كالذخائر ، وكل شىء منها لشأنه وما يراد به ، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوانات مصرّفة فى مصالحه . ففى هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوقٌ بتدبر وتقدير ونظام ، وأن الخالق له واحد هو الذى آلفه ونظم بعضه إلى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ، ولكنا ننصرف إلى فن آخر من دقائق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملاءمة ، وفى ذلك توبيخ للقائلين بالإهمال والقائلين بأصلين متضادين[٢] لأن الإهمال لايأتى بالصواب ، والتضاد لا يأتى بالنظائر .

[فكـر فى لون هذه السـماء]

وما فيها من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للأبصار ، وتقوية لها حتى إن من صفات الأطباء لمن أصابه شىء أضر ببصره إدمان النظر إلى الخضرة ما قرُب منها إلى السواد ، وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الإطلاع فى إجانة[٣] خضراء مملوءة ماء .

---

(٢) فى هامش الأصل : الأصلان المتضادان هما الذكر والأنثى ، والحار والبارد ، أو الحركة والسكون ، أو الجنة والنار ، أو العلم واللوح أو طريقا الأعلى والأسفل .

(٣) الإجانة : المِرْكنُ ، وجمعها : الأجاجين .

فانظر كيف جعل هذا الأديم أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد تمسك الأبصار المتقلبة عليه فلا ينكى[٤] فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذى أدركه الناس بعد التفكر والتجارب يوجد مفروغاً منه فى الخلقة .

[فكر فى طلوع الشمس وغروبها]

لإقامة دولتى النهار والليل ، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه ؟ فالأرب[٥] فى طلوعها ظاهر متسغن بظهوره عن الإطناب فيه ، ولكن تأمل المنفعة فى غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ، ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء لراحة أبدانهم ، وجموم[٦] حواسهم ، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء كالذى تصف كتب الطب من ذلك .

ثم كان الحرص سيحملهم إلى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته[٧] فى أبدانهم فإن كثيراً من الناس لولا جثوم[٨] هذا الليل بظلمته عليهم لماهدؤوا ، ولا قروا حرصاً على الكسب والجمع ، ثم كانت الأرض ستحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت ملياً ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤوا ويقروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما فى ذلك من المصلحة ففى الشتاء تغور الحرارة فى الشجر والنبات

---

(٤) نكا : نكاية أى أصاب .
(٥) الأرب: الحاجة ، يقال : أرب إليه يأرب أرباً : احتاج .
(٦) جموم من الجمام وهو الراحة .
(٧) النكاية : الإصابة .
(٨) جثم يجثم جثماً وجُثوماً فهو جاثم : لزم مكانه فلم يبرح أى تلبد بالأرض .

فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى الأفعال الطبيعية .

وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات ، وينوِّر الشجر ويهيج الحيوان للسفاد(٩) .

وفى الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار ، وتتحلل فضول الأبدان ، ويجف وجه الأرض فيتهيأ للبناء والاعتمال .

وفى الخريف يصفو الهواء فترفع الأمراض ، وتصح الأبدان ، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال الطويلة إلى مصالح أخرى لو تقصّى ذكرها طال الكلام فيها .

[فكر فى تنقــل الشمــس]

فى هذه البروج لإقامة دور السنة ، وما فى ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذى يضم الأزمنة الأربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ، ويستوفيها على التمام لأنه فى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى إلى غاياتها من النضج والصلاح ، ثم يعود فيستأنف النشو والنمو .

فما أحسن ما قال الأولون الزمان مقدار الحركة ، ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل فبالسنة وأجزائها يكال الزمان ، وتوزن الأوقات من لدن خلق الله العالم إلى كل وقتٍ وعصر ، وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون ، والإجارات ، والمعاملات وغير ذلك من أمورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ، ويقوم حساب الزمان على الصحة .

---

(٩) السفاد : نزوُ الذكر على الأنثى ، يقال للسباع كلها : سَفَدَ وسَفِدَ أنثاه ، وللتيس ، والثور ، والبعير ، والطير مثلها .

[فأما سـير القمـر]

ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة فى معرفة الشهور ، ولا يقوم عليه حساب السنة لأن دوره لا يستوى فى الأزمنة الأربعة ونشو الثمار ، وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها ، وصار الشهر من شهور القمر يتنقل فيكون مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف .

[«تأمل» شـروق الشمس على العالم]

كيف دُبر أن يكون فإنها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء فتقف فيه لاتعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجبال ، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسط من الأرب فيها .

[فكـر فى مقادير الليل والنهـار]

كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد خمس عشرة ساعة لايجاوز ذلك أرأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة أو مائتين ألم يكن فى ذلك بوار ما على الأرض من حيوان أو نبات ؟! .

أما الحيوان فكان لايهدأ ، ولا يقر طول هذه المدة من العمل ولا البهائم كانت تمسك عن الرعى لو دام لها ضوء النهار ، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة فكان ذلك ينهكها أجمع ويؤديها إلى التلف .

وأما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ، ووهج الشمس حتى يحترق ، ويجف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتى تموت جوعاً ، وتخمد الحرارة الطبيعية من

النبات حتى يعفن ويفسد كالذى نراه يحدث على النبات إذا كان فى موضع لاتقع عليه الشمس .

[فكر فى إنارة القمر]

والكواكب فى ظلمة الليل ، والأرب فى ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة والهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى أن يكون فى الليل ظلمة داجية لاضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل لضيق الوقت عليهم فى بعض الأعمال ، أو لشدة الحر وإفراطه بالنهار فيُعمل فى ضوء القمر أعمالٌ شتى كحرث الأرض ، وضرب اللبن[١٠] وقطع الحطب ، وما أشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال إذا احتاجوا إلى ذلك ، وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض ، ونقص مع ذلك عن نور الشمس ، وضيائها لكيلا ينبسط الناس فى العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ، ويتمتعوا من الهدوء ، والقرار فينهكهم ذلك وجعل فى الكواكب جزءاً يسيراً من الضوء ليسد مسداً إذا لم يكن قمر ، ويمكن فيه بعض الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التى يحتاج معها إلى النجاة والسعى فى جوف الليل المظلم ، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدى به لم يستطع المرء أن يزول عن مكانه .

فتأمل لطف الحكمة فى هذا التقدير حيث جعلت للظلمة دولة ، ومدة للحاجة إليها ، وجعل خلالها شيء من النور للمآرب التى وصفنا ثم فى النجوم مآرب أخرى ، فإن فيها علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة ، والغراسة ، والسفر فى البر والبحر وأشياء مما تحدث فى الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدى السارى فى ظلمة الليل ، ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة مع مافى ترددها فى هذه السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة مغربة وفى

---

(١٠) اللبنة ، والجمع لَبِنٌ : التى يبنى بها ، وهو من المضروب من الطين مُرَبَّعاً .

تصريف القمر خاصة فى مهلّه ومحاقه[11] ، وزيادته ونقصانه ، وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لصلاح العالم .

ومما يدل عليه القياس أن هذه المصابيح تسير أسرع السير وأحثه ، وذلك أنها تدور فى كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع إلى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة فى مقدار أربعة وعشرين ساعة . أفرأيت لو كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هى عليه ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذى يحدث أحياناً من البروق إذا توالت ، واضطربت فى الجو ؟! وكذلك أيضاً لو أن ناساً كانوا فى قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخروا بوجوههم فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها فى البعد البعيد لكيلا تضر الأبصار ، وينكأ[12] فيها النور ، وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها .

[فكر فى هذه النجوم]

التى تظهر فى بعض السنة ، وتحتجب فى بعضها كمثل الثريا والجوزاء والشعرى فإنها لو كانت بأسرها تظهر فى وقتٍ واحدٍ ، وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ، ويهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الان بما يكون فى طلوع الثريا والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت .

فصار ظهور كل واحد منهما ، واحتجابه فى وقت غير وقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منهما على حدته ، فكما جعلت الثريا وأشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً لضروب من المصلحة ، كذلك جعلت بنات نعش

---

(١١) المحق : النقصان ، والمحو ، والمُحاق للقمر : هو أن يطلع قبل طلوع الشمس فلا يُرى ، يفعل ذلك ليلتين من آخر الشهر .

(١٢) ينكأ : يصيب .

ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التى يهتدى بها الناس للطرق المجهولة فى البر والبحر معاً ، وذلك أنها لا تغيب ولا توارى أصلاً فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها . إلى حيث شاءوا وصار الأمران جميعاً على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة .

[فكر فى النجوم]

واختلاف سيرها ففرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير إلا سيراً ضعيفاً مجتمعة .

وفرقة مطلقة تتنقل فى البروج وتفترق فى مسيرها فكل واحد منها يسير بسيرين مختلفين أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق .

وقد شبه الأولون هذه المطلقة بنملة تدب على رحى والرحا تدور ذات اليمين ، والنملة تدور ذات الشمال فإن النملة فى تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين إحداهما بنفسها متوجهة أمامها ، والأخرى مستكرهة مع الرحى تجتذبها إلى خلفها فليسأل الزاعمون أن النجوم صارت على ما هى عليه بالإهمال ، ومن غير عمدٍ ما منعها أن تكون كلها راتبةً ، أو تكون كلها متنقلة فإن الإهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن ؟! فهذا بيان أن مسير الفريقين على مايسيران عليه بعمد وتدبير ، وليس بإهمالٍ كما تزعم المعطلة . فإن قلت : ولم صار بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلاً ؟ قلنا : إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التى تكون من تنقل المتنقلة منها ومصيرها فى كل واحد من البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على أشياء مما يحدث فى العالم بتنقل الشمس والقمر والنجوم فى منازلها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة فى البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التى يجتاز عليها .

وجملة القول : أنها لو كانت بحالة واحدة لاختل نظامها ، وبطلت المآرب فيها ، ولساغ لقائل أن يقول : إن كينونتها على حال واحدة . يوجب عليها الإهمال من الجهة التى وصفنا .

ففى اختلاف مسيرها وتصرفها وما فى ذلك من الأرب والمصلحة أبين دليل على العمد والتدبير فيها .

(**فكر**) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقديروالوزن إلا لما فى اختلاف النهار والليل ، وهذه الأزمان الأربعة من السنة على الأرض ، وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذى بيَّنَّا ولخصنا آنفا ، وهل يخفى على ذى لب أن هذا التقدير مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم .

فإن قلت : إن هذا شيء اتفق أن يكون هكذا فما يمنعك أن تقول هذا فى دولاب تراه يدور لسقى حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدراً بعضها تلقاء بعض على مافيه صلاح تلك الحديقة وما فيها ، وبماذا كنت تثبت هذا القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك . أفتنكر أن تقول هذا فى دولاب خسيس مصنوع بحيلة تصيره قطعة من الأرض إنه كان بلا صانع ومقدر ، وتقدم على أن تقول هذا الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر لصلاح جميع الأرض ، وما عليها أنه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل(١٣) هذا الفلك كما تعتل هذه الآلات التى تتخذ لرفع الماء ، وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة فى صلاحه ، ولو تخلفت عنهم مقدار عام أو بعض عام كيف تكون حالهم ؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء ؟ أفلا ترى كيف كفى الناس هذه الأمور الجليلة التى لم يكن لها فيها عندهم حيلة فصارت تجرى على مجاريها لاتعتل ولا تختل منافعها ومصالحها ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه .

---

(١٣) اعتل : تعطل ، وتوقف .

[فكر فى هذا الحر والبرد]

وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذا التصرف فى الزيادة والنقصان والاعتدال لإقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيها من المصالح ثم هما بعدُ باغ الأبدان عليهما بقاؤها ، وفيهما صلاحها فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت الأبدان ، وانتكثت قواها ، وانتقضت فى أسرع مدة .

(**ثم فكر**) فى دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فإنك تجد أحدهما ينتقص شيئاً بعد شيء والآخر يتزيد مثل ذلك حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه فى الزيادة والنقصان ولو كان دخول أحدهما فى الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان ، وأسقمها كما أن امرأ لو خرج من حمام حار إلى موضع مفرط البرد لضره ذلك وأسقم بدنه فما كان هذا الترسل فى دخول الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة وما جرى ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا تدبير المدبر فى ذلك .

فإن زعمت أن هذا الترسل فى دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس فى ارتفاعها وانحطاطها سألت أيضاً عن العلة فى إبطاء مسير الشمس فى الارتفاع والانحطاط فإن اعتللت فى الإبطاء ببعد ما بين المشرقين وسئلت عن العلة فى ذلك فلا تزال هذه المسئلة ترتقى معك إلى حيث رقيت من هذا القول حتى تستقر على العمد والتدبير . لولا الحر لما كانت هذه الثمار الجاسية[١٤] المرة تنضج فتلين ، وتعذب حتى يتفكه بها رطبةً ويابسة ، ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ، ويريع الريع الكثير الذى يتسع للقوت ، وما يردّ فى الأرض ، أفلا ترى ما فى الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع عظم غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ، ويمضها فاعتبر بهذا فى كثير من الأمور التى تمض الناس وتخالف أهواءهم وهى من التدبير الحكيم فى مصلحتهم .

---

(١٤) الجاسية : الطافية .

فتأمل حكمة البارى فى التدبير فى خلق النار على ما هى عليه فإنه لم يكن يصلح أن تكون مبثوثة كالنسيم والماء إذاً كانت تحرق العالم بما فيه ، ولم يكن بد من ظهورها فى الأحايين لعنايتها فى كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة فى الأجسام الحافظة لها تستبعث عند الحاجة إليها فتمسك بالمادة والحطب مااحتيج إلى بقائها ثم تخبو فلا هى تمسك أبداً بالمادة والحطب ، فتعظم المؤنة فى ذلك ولا هى تظهر مبثوثة فى العالم فتحرق كلما هى عليه بل هى على هيئة وتقدير اجتمع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها .

ثم فى النار خلة أخرى وهى أنها مما خص به الإنسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل فى معاشه .

فأما البهائم فلا تستعمل النار ولاتستمتع بها ولما قدر أن يكون هكذا خلقت للإنسان كف وأصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ، ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها أعينت بالصبر على الجفا ، والخلل فى المعاش لكيلا ينالها من فقد النار ما ينال الإنسان . وأنبهك من مصالح النار على خلة صغير قدرها عظيم موقعها وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ماشاءوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة من فى القبور . فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ أو ينسخ فى ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع فى وقت من أوقات الليل فاحتاج إلى أن يعالج ضماداً أو سفوفاً[١٥] أو شيئاً ممايستشفى به .

فأما منافع النار فى نضج الأطعمة دفء الأبدان وتجفيف أشياء وتحليل أخرى وأشباه هذا فإنه أكثر من أن يحصى وأظهر من أن يخفى حسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة ، وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشىء منه ومن خارج بما يباشر *من* روحه ، وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤديها من البعد البعيد ، وهو الحامل لهذه الأراييح ينقلها من موضع إلى موضع ، ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح ، وكذلك الصوت

---

(١٥) كل داوء يؤخذ غير معجون فهو سفوف ، والسُّفوف : سواد اللثة .

وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يعتقبان على العالم لصلاحه ، ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروّح عن الأجسام ، وتزجى[١٦] السحاب من موضع إلى موضع ليعم نفعه وتركمه حتى يستكثف فيمطر ويغيضه[١٧] حتى يستجف فتنفش، وتلقّح الشجر ، وتسيّر السفن وتذرى الأطعمة ، وتبرد الماء ، وتشب النار ، وتجفف الأشياء الندية . وفى الجملة إنها تحيى كل ما على الأرض فإنه لولا الريح لذوى النبات وموّت الحيوان ووخمت الأشياء وفسدت .

ألست ترى ركود الريح إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذى يكاد يأتى على النفوس وتمرض الأصحاء ، وتنهك المرضى، وتفسد الثمار وتعفن البقول ، ويعقب الوباء فى الأبدان ، والآفة فى الغلات .

ففى هذا بيان أن هبوب الريح أكثر الأيام من التدبير الحكيم فى صلاح هذا الخلق .

وأنبئك عن الهواء بخصلة أخرى فإن الصوت فيما ذكرت الحكماء أثر يؤثره اصطكاك الأجسام فى الهواء والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون فى حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان أثر هذا الكلام يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب فى القراطيس لامتلأ العالم منه حتى يكربنا ويقدحنا ونحتاج فى تبديله والاستبدال به إلى أكثر مما نحتاج إليه فى استبدال القراطيس لأن الذى يلغى من الكلام ولا يكتب أضعاف مايكتب فجعل الخلاق العليم هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ريثما يبلغ حاجتنا ، ثم يمحى فيعود جديداً نقيا بلا كلفة منّا ولا عزم ويحمل ما حملناه أبداً بلا انقطاع .

---

(١٦) زجى : زجى الشيء ، وأزجاه : ساقه ودفعه ، والريح تُزجى السحاب أى تسوقه سوقاً رقيقاً .

(١٧) غيض : غاض الماء يغيض غيضاً وانغاض : نقص أو غار فذهب ، والمغيض : المكان الذى يغيض فيه الماء ، وغاض ثمن السلعة يغيض : نقص .

[فكر فى خلق هذه الأرض]

على ما هى عليه حين خلقت راتبة راكدة لتكون وطاء ومستقراً للأشياء ويتمكن الناس والأنعام من السعى عليها فى مآربهم والجلوس لراحتهم ، والنوم لهدوئهم ، والإتقان لأعمالهم ، فإنها لو كانت رجراجة منكفئة لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء ، والنجارة ، والحدادة ، والصياغة والحياكة بل كانوا لا يتهنون بالعيش ، والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس فى الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا إلى ترك منازلهم والهرب عنها . فإن قلت : ولم صارت الأرض تزلزل ؟ (قلنا) : إن الزلزلة وما أشبهها ترهيب يرهب بها الناس ليرغبوا وينزعوا عن المعاصى ، وكذلك ما ينزل بهم من البلايا فى أبدانهم، وأموالهم من نقمةٍ ومصيبةٍ ، وقحط تجرى فى التدبير إلى ما فيه صلاحهم واستقامتهم ، ويدخر لهم إن صلحوا من الثواب والعوض فى الآخرة ما لايعدله شىء من أمور الدنيا ، وربما عجل ذلك فى الدنيا إذا كان فيه صلاح لعامة أو خاصة ثم إن الأرض فى طباعها باردة يابسة ، وكذلك الحجارة ، وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس فى الحجارة أفرأيت لو أن اليبس إن أفرط على الأرض قليلاً حتى تكون حجراً صلداً ؟ أكانت تكون تنبت هذا النبات الذى فيه حياة الحيوان أو كيف كان يمكن فيها حرث أو خضرة أو بناء ؟! فلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة ، وجعلت على ما هى عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للأعمال . ومن التدبير الحكيم فى خلقة الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب وما كان ذلك إلا لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ، ثم تفيض إلى البحر آخر ذلك فكما يرفع أحد جانبى السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ، ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب ، ولولا ذلك لبقى الماء متحيراً على وجه الأرض فمنع الناس من أعمالها وقطع الطرق والمسالك .

[انظـر إلى هذه الجبـال]

المركومة من الطين والحجارة التى قد يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة إليه ، والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها لمن يحتاج فى القيظ اليه ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التى تجتمع منها الأنهار العظام وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التى لاينبت مثلها فى السهل .

ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية ، وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى أن يكون فيها خلال أخرى لايعرفها إلا المقدر لها فى سابق علمه .

[فكـر فى هذه المعادن]

وما يخرج منها من الجواهر المختلفة الألوان كمثل الجص ، والكلس ، والجير والجبصين ، والزرنيخ ، والزاج والمزتك ، والتوتيا ، والفضة ، والذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والزئبق ، والنحاس ، والرصاص ، والخرز ، والحجارة وكذلك مايخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس فى مآربهم ومصالحهم ، وكيف اختلفت طبائعها وألوانها وأحوالها فمنها ما هو سم قاتل ، ومنها ما ينفع من السم ويقطعه ، ومنها ما يقويه ويزيل فى فعله فهل يخفى على ذى عقل أن هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان فى هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته إليها .

[ثم فكر فى عزة هذا الذهب]

والفضة وقصور حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم فى ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض فى العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس

فلا تكون لهما قيمة ، ويبطل الانتفاع بهما فى الشراء والبيع والمعاملات ، والإتاوة تجبى للسلطان الذخر تذخر للأعقاب وقد أعطى الناس مع هذا صنعة الشبة من النحاس والزجاج من الرمل وما أشبه ذلك مما لا مضرة فيه . فانظر كيف أعطوا إرادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه ، ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه .

أخبرنا أناس ممن يزاول المعادن أنهم أوغلوا فى بعضها فانتهوا إلى موضع رأوا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك وادٍ عظيم يجرى متصلاً بماء غزير لايدرك غوره ولا حيلة فى عبوره ثم عادوا يطلبونه فلم يقفوا عليه فانصرفوا آسفين .

(**فكر**) فى هذا من تدبير الخالق فإنه أراد جل ثناؤه أن يرى العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل ، لكن لا صلاح لهم فى ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الطريف يحدثه الناس من الأوانى والأمتعة فما دام عزيزاً قليلاً فهو نفيس جليل آخذ للثمن ، فإذا فشا وكثر فى أيدى الناس سقط عندهم ، وخست قيمته وفى هذا مصداق قول القائل إن نفاسة الأشياء من عزتها .

(**فكر**) فى كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الأربعة ليتسع الناس بما يحتاج إليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها ، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الإنس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أعشابهم وأحطابهم ، والعقاقير العظيم موقعها منهم والمعادن الجسيم غناؤها عنهم ولعلك تنكر هذه الفلوات الخالية والقفار الموحشة فتقول : ما المنفعة فيها ؟ أفنسيت أنها مستكنّ هذه الوحوش ومحالها ومرعاها ثم فيها متنفس ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الإستبدال بأوطانهم فكم من بيداء سملق[١٨] قد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها ، ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن كان فى حصار ضيق لايجد مندوحة من وطنه إذا حزبه أمرٌ يضطره إلى الانتقال عنه ،

---

(١٨) السملق : الأرض المستوية ، وقيل : القَفْر الذى لانبات فيه .

وكذلك الماء لولا تدفقه وجريانه فى العيون والأودية والأنهار لضاق عما يحتاج الناس لشربهم وشرب أنعامهم ، ومواشيهم ، وسقى زروعهم ، وأشجارهم وأصناف غلاتهم وشرب ما يرده من الوحش والطير والسباع ، ويتقلب فيه من الحيتان وذوات الماء . وهكذا الهواء أيضاً لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الأنام من الدخان والبخار الذى يتبخر فيه ولعجز عما يحول إلى الضباب والسحاب أولاً فأولاً .

والنار أيضاً كذلك فإنها وإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليها منها أنها مخزونة فى الأجسام للسبب الذى ذكرنا آنفا وأذكرك من منافع الماء خلالاً أنت بها عارف ، وعن عظيم موقعها غافل فإن سوى الأمر الجليل المعروف فى عنائه فى أحياء جميع ما على وجه الأرض من حيوان أو نبات به تمزج الأشربة فتلين وتعتدل وتطيب لشاربيها وبه ترحض[19] الأبدان والأمتعة من الدرن الذى يغشاها وبه يبل التراب ، ويصلح للاعتمال به . وبه يكف عادية النار إذا اضطرمت وأشفى الناس منها على الهلاك ، والمكروه وبه يسيغ الغاص ما غص به فينجو من الموتا ، وبه يستحم التعب الكال فيجد الراحة فى أوصاله إلى أشباه هذا من المآرب التى يعرف عظم . وقعها فى وقت الحاجة إليها . فإن شككت فى منفعة هذا الماء الكثير المتراكم فى البحار فقلت : ما الأرب فيه ؟ فاعلم أنه مسكن ومضطرب لما لايحصى من أصناف السمك ودواب البحار ومعدن اللؤلؤ والمرجان والياقوت والعنبر ، وأصناف شتى تستخرج من البحر ، ومن سواحله منابت العود واليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ، ثم بعده هو مركب للناس ، ومحمل لهذه التجارات التى تحمل من البلدان البعيدة كما يجلب من الصين إلى العراق ، ومن العراق إلى الصين وإن هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت فى بلدانها ، وأيدى أهلها لأن أجرة محملها كان يجاوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها ، وكان يجتمع فى

---

(١٩) الرحض : الغسل ، يقال : رحض يده والإناء ، والثوب وغيرها يرحضها ، ويرحضها رحضاً : غسلها ، والرحاضة : الغسالة ، وثوب رحيض مرحوض : أى مغسول .

ذلك أمران أحدهما : فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها ، والآخر : انقطاع معاش من يجلبها ، ويتعيش بفضلها .

[فكــر فى نزول المطــر]

على الأرض والتدبير فيه فإنه جعل ينحدر عليها من أعلا ليغشى ماغلظ منها . وارتفع فيرويه ، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ، ولقل ما يزرع من الأرض ، ألا ترى الذى يزرع سيحا أقل من ذلك ، والأمطار هى التى تطبق الأرض ، وبها تزرع هذه البرارى الواسعة وسفوح الجبال ، وذراها فتغل الغلة الكثيرة ، وبها يسقط على الناس فى كثير من البلاد مؤنة بسياق الماء من موضع إلى موضع وما يجرى بينهم فى ذلك من التشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء .

ثم إنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيها بالرش ليغور فى قعر الأرض فيرويها ، ولو كان ينسكب انسكاباً كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها ، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رفيقا فينبت الحب المزروع ، ويحيى الزرع القائم ثم فى نزوله أيضاً مصالح أخرى فإنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل مايسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان[٢٠] إلى أشباه هذا من المنافع فيه .

(**فإن قلت**) : أو ليس قد يكون منه فى بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه أو برد يكون فيه تحطم الغلات أو بحثورة[٢١] يحدثها الهواء فيولد كثيراً من الأمراض فى الأبدان والآفات فى الغلات ؟

---

(٢٠) اليرقانُ : هو آفةٌ تصيب الزرع ، وداءٌ يصيب الإنسان ، وهو عبارة عن دودٍ يكون فى الزرع ، ثم ينسلخ فيصير فراشاً .

(٢١) بحثر متاعه وبعثره أى فرقه ، وقلب بعضه على بعضٍ .

(**قلنا**) : بلى قد يكون ذلك فى الفرط لما فيه صلاح الإنسان بكفه عن ركوب المعاصى ، والتمادى فيها فتكون المنفعة له فيما يصلح له من دينه أرجح مما عسى أن يرزأ فى ماله .

[فكــر فى المطر والصحــو]

كيف يعتقبان على العالم لما فيه صلاح ولو دام واحد منهما عليه كان فى ذلك فساده ، ألا ترى أن الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر ، واسترخت أبدان الحيوان وخثر الهواء[٢٢] فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك . وإن الصحو إذا دام جفت الأبدان ، وتصوح النبات ويبطىء نضج الثمار، وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض ، فإذا تعاقبا على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ، ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت .

(**فإن قلت**) : ولم يكون فى شىء منها مضرة إلبتة ؟ قلنا : ليمض ذلك الإنسان ويؤلمه بعض الألم فيرعوى ، وينزع عن المعاصى فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية الكريهة المرة المنيعة لتقوم طباعه ، وتصلح ما فسد منه ، كذلك هو إذا طغى وأشر احتاج إلى مايمضه ويؤلمه بعض الألم ليرعوى ويقصر عن بعض مساوئه ، وينتبه على ما فيه حظه ورشده .

ولو أن ملكاً من الملوك قسم فى أهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن ذلك سيعظم عندهم ، ويذهب له به الصيت والذكر ، فأين ذلك من مطرٍ واحدٍ يعم البلاد وقيمته ما يزيد فى الغلات من قناطير الذهب والفضة فى أقاليم الأرض كلها أفلا ترى المطرة الواحدة ما أكثر قدرها وأعظم النعمة على الناس فيها ، وهم عنها ساهون ، وربما عافت أحدهم عن الحاجة لاقدر لها فتذمر وتسخط إيثاراً للخسيس قدره على نفعه العظيم .

(٢٢) خثر : الخثورة : نقيض الرقة ، يقال : خثر اللبن ، والعسل ونحوهما ، ويقال الخثر محركة العكر .

[فكــر فى هذا النبــات]

وما فيه من ضروب المآرب الثمار للغذاء ، والأتبان للعلف والحطب للوقود ، والخشب لكل شىء من أعمال النجارة واللحاء والورق والزهر والأصول والفروع ، والصموغ لضروب من المنافع . أفرأيت لو كنا نجد الثمار التى منها نتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينبت على هذا السوق والأغصان الحاملة لها ؟! كم كان سيدخل علينا من الخلل فى معايشنا . وهل كانت طيبة إذا أخذناها فى الأرض فالتدبير فى كونها على ما هى عليه بيّن النفع والحكمة .

وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع فى الحطب ، والحشيش ، والأتبان وسائر ما عددنا عظيم موقعها جليل فقدها هذا مع ما فى النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التى لايعدلها شىء من مناظر العالم وملاهيه فسبحان الذى أحسن كل شىء خلقه .

[ثم فكــر فى هذا الربيــع]

الذى جعل فى الأرض حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مئة حبة ، وأكثر وأقل ، وكان يجوز أن تكون الحبة تأتى بحبة مثلها لم صارت تريع هذا الريع كله إلا ليكون فى الغلة متسع لما يردّ فى الأرض من الحب ، ومما يقوّت الزارع وغيره إلى إدراك زرعه ألا ترى أن الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل فى ذلك أن يعطى أهله مايبذرونه فى أرضهم ، وما يقوتهم إلى إدراك زروعهم . فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم فى تدبير الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذلك الشجر والنخل يريع الريع الكثير فإنك ترى الأصل الواحد حوله من الشكل أمر عظيم فلم كان ذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس ، ويستعملونه فى مآربهم ، وما يرد فيغرس فى الأرض ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما أمكن أن يقطع منه شىء لعمل ولا لغرس ، ثم كان إن أصابته آفة انقطع أصله فلم يكن منه خلف .

[تأمل نبات هذه الحبوب]

من العدس والمج ، والدجر ، والجرجير ، وما أشبه ذلك فإنها تخرج فى أوعية شبه الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه .

فأما البر وما أشبهه فإنه يخرج مدرجاً فى قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السقا ليمنع الطير منه . فإن قلت : أو ليس قد ينال الطير منه على حال من البر والحبوب ؟ قلنا : بلى لعمرى وعلى هذا قدّر الأمر فيها لأن الطير أيضاً خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله له فيما يخرج من الأرض حظاً ، ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لكيلا يتمكن الطائر منها كل التمكن فيعبث فيها ، ويفسد الفساد الفاحش فإنه لو كان الحب يصاب ، والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينشفه أصلاً فكان يعرض من ذلك أن يبشم[٢٣] الطير فيموت ويخرج الزارع من زراعته صفراً فجعلت هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه شيئاً يسيراً ، ويتقوت به ويبقى أكثره للإنسان لأنه أولى به إذا كان هو الذى طرح فيه وسقاه ، وكان الذى يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطائر .

[تأمل الحكمة فى خلق الشجر]

وأصناف النبات فإنها لو كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ، ولم تكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض لينزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها التى هى لها كالأفواه الملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها .

ألم تر إلى عمد الفُسطاط والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولاتميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة فى الأرض

(٢٣) بشم : البشم : تُخمةٌ على الدَّسمِ ، وقيل : هو أن يكثر من الطعام حتى يكربه .

وممتدة إلى كل جانب تمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال الدوح العظام فى الريح العاصف .

فانظر إلى حكمة الخلقة كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحكمة التى تستعملها الصناعة فى ثبات الفساطيط والخيم متأخرة لأن خلق الشجر قبل صناعة الفساطيط والخيم ألا ترى أن عمودها ، ودعائمها ، وعيدانها من الشجر فيحق ما قال الأولون : (الصناعة تحكى الطبيعة) .

[تأمل خلق الورق]

فإنك ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع ، فمنها غلاظ ممتدة فى طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً رقيقاً معجبًا لو كان مما يصنع بالأيدى كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة فى عام كامل ، ولا احتيج فيه إلى آلات وحركة وعلاج وكدح فصار يأتى منه فى أيام قلائل من الربيع مايملأ الجبال والسهول وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا الإرادة النافذة فى كل شىء .

واعرف مع ذلك العلة فى تلك العروق فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها لتسقيها ، وتوصل إليها المادة بمنزلة العروق المبثوثة فى البدن لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وفى الغلاظ أيضاً معنى آخر فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها لكيلا تنتهك وتتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة فى طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب فالطبيعة ، وإن كانت تمثل بالصناعة فإن الصناعة هى التى تشبه الطبيعة .

[فكر فى هذه العجم والنوى]

والعلة فيه فإنه جعل فى جوف الثمرة ليقوم مقام الغراس إن قام دون الغرس عائق كما قد يخزن الشىء النفيس الذى تعظم الحاجة إليه فى مواضع شتى فإن حدث على الذى فى بعض المواضع منه حدث . وجد فى آخر . ثم هو بعد يمسك

بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت وتفسخت وأسرع إليها الفساد وفى بعضه حب يؤكل ويستخرج دهنه فيستعمل فى ضروب من المصالح .

وإذ قد تبين لك موضع الأرب من العجم والنوى ، ففكر الآن فى هذا الذى يخرج فوقه من المأكل الذى يجده فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة ما العلة فيه ولماذا يخرج بهذه العلة وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون فى السرو ، والدلب ، والطرفا وما أشبه ذلك فلم صار يخرج وفوقه هذه المطاعم اللذيذة إلا ليستمتع بها الإنسان ، وينال منها بعض الأنعام والهوام .

[فكــر فى ضرب من التدبير فى الشجــر]

فإنك تراه يموت فى كل سنة موتةً فتحتبس الحرارة الطبيعية فى غوره وتتولد مواد الثمار ثم تحى وتنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع كما تقدم إليك أنواع الأخبصة التى تعالج بالأيدى واحداً بعد واحدٍ فترى الأغصان فى الشجر تلقاك بالثمر حتى كأنها تناولكها عن يدٍ وترى الرياحين تلقاك فى أفنانها كأنها تحييك بأنفسها . فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم . وما العلة فيه إلا تفكيه الإنسان بهذه الأنواع أفلا تعجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها !!

[فكــر فى خلق الرمانــة]

وما ترى فيها من أثر العمد والتدبير فإنك ترى فيها كأمثال التلال من شحم مركوم من نواحيها وحب مرصوف رصفاً كنحوما ينضد بالأيدى وترى الحب مقسوماً أقساماً كل قسم منها مقسوم بلفائف من حجب منسوجة أعجب نسيج وألطفه ، وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير فى هذه الصنعة أنه لم يجز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده ، وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء ألا ترى أن أصول الحب مركوزة فى ذلك الشحم ، ثم لف الحب فى تلك اللفائف ليضمه ويمسكه ، فلا يضطرب وغُشّى

فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه ، وتحفظه من الآفات فهذا قليل من كثيرٍ من وصف الرمانة ، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الإطناب ، والتذرع[٢٤] فى الكلام ولكن فى هذا الذى ذكرنا منه كفاية فى الدلالة والعبرة .

[فكــر فى حمل اليقطين]

الضعيف مثل هذه الثمار الثقال كالدبا والقثاء والخربز وما فى ذلك من التدبير فإنه لما قدر أن تحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض ، ولو كان منبسطاً قائماً كما ينتصب الزرع والشجر لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها . فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل من القرع والبطيخ مفترشاً على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها هرة متمددة قد اكتنفها أجزاؤها لترضع منها فانظر كيف صارت هذه الأصناف توفى فى الوقت المشاكل لها من حمارة الصيف ، ووقدة الحر فتلقاها الطبيعة بانشراح وتشوق إليها ، ولو كانت توافى فى الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً منها مع مايكون منها من المضرة للأبدان ألا ترى أنه ربما أدرك شىء من القثاء فى الشتاء فامتنع الناس من أكه إلا الجشِع الذى لايمتنع من أكل مايضره ويستوخم مغبته .

[فكــر فى خلة تجدها فى النخــل]

فإنه لما صار منها إناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيها ذكور تتلقح فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذى تلقح الإناث لتحمل وهو لايحمل .

تأمل خلقة الجذع فإنك تراه منسوجاً نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى وأخرى معترضة كاللحمة كنسج مماينسج بالأيدى وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوان الثقيلة وهبوب الرياح العواصف إذا كان نخلة وليتهيأ

---

(٢٤) التذرع : التوسع والإطالة .

للسقوف والجسور ، وغير ذلك مما يتخذ منه إذا كان جذعاً فكذلك ترى فى الخشب منه شبه النسج فإنك ترى بعضها متداخلاً بعضها طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات ، فإنه لو كان مستحصفاً كالحجارة لم يكن أن يستعمل فى السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالأبواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك .

ومن جسيم المصالح فى الخشب أنه يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا وليس كلهم يعرف خلاله والنفع فيه فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والأطواف تحمل أمثال الجبال من الحمولة ، وأنى كان ينال الناس هذا المرفق وخفة المؤنة فى حمل التجارات من بلدٍ إلى بلدٍ بل كانت ستعظم المؤنة عليهم فى حملها حتى تلقى كثيراً منها فى بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسيراً وجوده .

[فكر فى هذه العقاقير]

وما خص به كل واحد منها من العمل فى بعض الأدواء فهذا يغور فى المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج ، وهذا ينزف المرة السوداء مثل الأفيتمون ، وهذا ينفى الريح مثل السكبينج ، وهذا يحلل الأورام مثل الرازيانج وأشباه هذا من أفعالهم . فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة ومن فطّن الناس لها إلا من جعل هذا فيها ، ومتى كان يوقع على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وُهب الإنسان فطنة لهذه الأشياء بذهنه ولطيف رويته فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض البهائم تتداوى من جراحة إن أصابته ببعض العقاقير فتبرأ ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم وأشباه ذلك مما يذكر فى كتب الطب والطبيعة .

ولعلك تشك فى هذا النبات النابت فى الصحارى حيث لا أنس ولا أنيس تظن أنه فضل لا حاجة إليه ، وليس كذلك بل هو طعم لهذه الوحوش وحبه علف الطير وسوقه وأفنانه حطب يستعمله الناس ، وفيه بعد أشياء يعالج بها الأبدان وأخرى يدبغ بها الجلود ، وأخرى يصبغ بها الأمتعة وأشباه هذا من المصالح . ألست تعلم أن من أخس النبات وأحقره هذا البردى ، والخلفا ،

وأشباهه ، وفيه مع هذا ضروب من المنافع فقد يتخذ منه القرطاس الذى يحتاج إليه الملوك والسوقة ، والحصر التى يستعملها كل صنف من الناس ، ويعمل منها الغلف التى توقى بها الأوانى يجعل حشواً بين الظروف فى الأسفار كيلا يعيب ، ولا يتكسر وأشباه هذا من المآرب فى صغير الخلق وكبيره وذوى القيمة منه ومالا قيمة له . وأخس من هذا وأحقر الزبل والعذرة التى اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً وموقعها من البقول والزروع وجميع الخضر الموقع الذى لايعدله شيء حتى إن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذى يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه إنه ليست منزلة الشيء فى العلم على حسب قيمته فى السوق بل هما قيمتان مختلفتان لسوقين مختلفين ، وربما كان الخسيس فى سوق الكسب نفيسا فى سوق العلم فلا تستصغر العبرة فى الشيء لصغر قيمته .

[فكر فى بنية أبدان الحيوان]

هيئها الله على ما هى عليه فلا هى صلاب كالحجارة إذا كانت لا تتثنى ولا تتصرف فى الأعمال ، ولا هى على غاية اللين والرخاوة إذا كانت لا تتحامل ولا تستقل فجعلت من لحم رخو يتثنى بتداخله عظام صلاب تمسكه وعصب وعروق تشده ونظم بعضه إلى بعض ، ثم غلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله .

ومن أشباه ذلك هذه التماثيل التى تعمل من العيدان ، ويلف عليها الخرق ، وتشد بالخيوط ويطلى فوق ذلك بالصمغ تكون العيدان بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب والعروق والطلى بمنزلة الجلد ، فإن جوزت أن يكون الحيوان الحى المتحرك حدث بالإهمال أو من غير صانع فجواز ذلك أولى فى هذه التماثيل الميتة ، وإن أغناك هذا فى التماثيل ففى الحيوان أحرى أن يتعذر عليك .

وفكر بعدها فى أجسام الأنعام فإنها حين خلقت كما خلقت أبدان الإنس من اللحم والعظم والعصب أعطيت أيضاً السمع والبصر ليبلغ الإنسان حاجته فإنها لو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان ، ولا تصرفت فى شيء من مآربه ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدها الكد الشديد ، وحملها الثقيل ولعلك تقول إنه قد يكون للإنسان عبيد من الإنس يذلون ويذعنون بالكد الشديد ، وهم مع ذلك غير عديمى العقل والذهن فنقول فى جواب ذلك إن هذا

الصنف فى الناس قليل فأما أكثر الناس فلا يذعنون بما يذعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك ، ولا يفون بما يحتاج إليه منه ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذا العمل بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال لأنه يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة إناس فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لايكون فيهم عنه فضل بشيء من الصناعات والمهن إلى ما كان سينالهم من التعب الفادح فى أبدانهم والضيق والنكد فى معايشهم .

فكر فى خلقة هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وتهيئتها على ما فيه صلاح كل واحد فالإنس لما قدر أن يكونوا ذوى ذهن وفطنة ، وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء ، والنجارة ، والحياكة ، والجزارة ، وما أشبه ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ تتمكن من القبض على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات . وآكلات اللحم لما قدر أن يكون معاشها من الصيد خلقت لها أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ، ولا تصلح للصناعات . وآكلات النبات لما قدر أن تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا جالت فى طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم لينطبق على الأرض ويتهيأ للركوب والحمولة .

تأمل التدبير فى خلقة آكلات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات أسنان حداد وبراثن شداد وأفواه واسعة فإنه لما قُدّر أن يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك ، وأعينت بسلاح وأدوات تصلح للصيد فكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيأة لفعلها لو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد اعطيت ما لاتحتاج إليه لأنها لاتصيد ، ولا تأكل اللحم ، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ماتحتاج إليه أعنى السلاح الذى به تصيد وتتعيش . أفلا ترى كيف أعطى كل واحد من الصنفين مايشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه انظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها ، لا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الإنس فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الترفق والعلم والتربية والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها .

وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كمثل الدراج ، والدجاج ، والقبج يدرج ، ويلقط حين ينقات[٢٥] عنها البيض .

فأما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض به كمثل فراخ الحمام والهام والحمر فجعل فى الأمهات فضل عطف فصار تمج الطُعم فى فيه بعد ما توعبه حواصلها ساعة ليلين ، ويسهل قبول الفرخ ولا تزال تغذوه حتى ينهض ويستقل بنفسه وكل أعطى بقسطه من التدبير الحكيم .

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتى أزواجاً ليتهيأ للمشى ، ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن الماشى ينقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمين ينقل واحداً ويعتمد على واحدٍ وذو الأربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين من خلاف لأن ذا الأربع لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كما لايثبت السرير ، وما أشبهه على قائمتين من أحد جانبيه على إنه ليس فى السرير روح ، والروح حمل الحيوان فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى الأخرى من مآخيره ، ويقر الأخيرتين أيضاً من خلاف فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى .

أما ترى كيف يذل للحمولة والطحن وهو يرى الفرس مودعاً منعماً ، والبعير الذى لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف ينقاد للصبى .

والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه فيحرث الأرض به والفرس الكريم يركب بالسيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه ، وكيف يتصرف فى الكر والفر والنأى والبعد ، ورد طوع عنانه وأقحمه على السيوف لغشيها والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو تفرقت الغنم فأخذت كل واحدة منها فى ناحية لم يلحقها ، وكذلك جميع الأصناف المسخرة للإنسان فيم كانت ذلك إلا بأنها عدمت العقل والروية فإنها لو كانت تروّى فى الأمور كانت خليقة أن تلتوى على الإنسان فى كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده ، والثور على صاحبه والغنم على راعيها وأشباه هذا من الأمور وكذلك هذه السباع لو كانت ذوات عقل

(٢٥) نُقِتَ العظمُ إذا أُخرج مخه .

وروية فتواردت على الناس كانت خليقة أن تجتاحهم ، فمن كان يقوم للأسد ، والذئاب ، والنمور ، والضباع ، والدببة والهوام والحيات لو تعاونت وتظاهرت على الناس .

ألا ترى كيف حجر ذلك عنها فصارت مكان ما كان يخاف من إقدامها ونكايتها تهاب مساكن الناس ، وتحجم عنها ، ثم لا تظهر ولا تنتشر فى طلب قوتها إلا بالليل فهى مع عداوتها وصولتها كالخائفة للإنس بل هى مقموعة ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم فى مساكنهم ، وضيقت عليهم مسالكهم .

أما ترى الكلب وهو كبعض السباع العادية كيف يتوقل[٢٦] على الحيطان والسطوح فى ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه ، وذب الدعار[٢٧] عنه ، ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دون ماشيته وماله ، ويألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع والعطش فلم طبع الكلب على هذا الألف ، والمحبة للإنسان إلا ليكون حارساً للإنسان حافظاً لماله فى أوقات غفلته .

ثم إنه حين جعل حارساً للإنسان أعين بأنياب ومخالب ، ونباح هائل ليذعر منه السارق والمريب ، ويتجنب المواضع التى تحميها كلاب وله شجاعة لا تثنيه ، وصبر لايخونه ، وسعى يلحق به الضياء ، وشم يستروح به أنفاس الطير ، والأرانب والثعالب فى مكانها ، وغير ذلك . ثم انظر لم صار ظهر الدابة مسطحاً مبطوحاً على قوائم أربع إلا لتتهيأ للركوب والحمولة .

ولم صار حياها بارزاً من ورائها إلا ليتمكن الفحل من ضرابها فإنه لو كان من أسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . ألا ترى أنه لايستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتى الرجل المرأة ، وقد ذكر أرسطاطاليس[٢٨] فى كتاب الحيوان أن حيا الأنثى من الفيلة فى أسفل بطنها فإن كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من ضرابها .

---

(٢٦) وقل فى الجبل ، بالفتح ، يقل وقلاً : صعد فيه ، والواقل : الصاعد بين حزونة الجبال .

(٢٧) الدعر : الذى لاخير فيه ، والدعار : المفسد .

(٢٨) أحد فلاسفة اليونان ، المشهورين فى عهد الإسكندر .

فانظر كيف جاء الحيا فى الأنثى من الفيلة على خلاف ما هى عليه فى غيرها من الأنعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للأمر الذى به قوام النسل .

انظر إلى هذه البهائم كيف كسيت أجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر ليقيها من البرد وكثير من الآفات ، وألبست قوائمها الأظلاف والحوافر لتقيها من الحفا فإنها لما كانت بهائم لاأذهان لها، ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج كفيت ذلك ، بأن جعلت كسوتها فى خلقتها باقية عليها مابقيت لاتحتاج إلى تجديدها ، ولا استبدالها. فأما الإنسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يغزل وينسج ، ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حالٍ ، ولف فى ذلك صلاح من جهات .

(منها) : أنه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية .

(ومنها) : أنه يستريح إلى خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء .

(ومنها) : أنه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها .

(ومنها) : أنه يتلذذ تارة بالعرى وتارة يتنعم باللباس ، وكذلك يتخذ بالترفق والصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقى بها قدميه فصار الشعر والوبر للبهائم مقام الكسوة ، وأظلافها والحوافر مقام الحذاء .

[فكر فى خلقة عجيبة]

جعلت فى البهائم الوحشية فإنها توارى أنفسها كما توارى الناس موتاهم وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغير ذلك لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلاً فتخفى لقلتها بل لو قال قائل : إنها أكثر من جيف الإنس لصدق واعتبر ذلك بما تراه فى هذه الصحارى من أضرب الظباء ، والمها ، والحمر ، والوعول والأيائل ، وغير ذلك من الوحوش وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها ، وضروب الهوام من الحشرات ودواب الأرض وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطاء ، والأوز ، والكراكى ، والحمام ، وسباع الطير أجمع

فأين هذه كلها؟ لا ترى منها شيئاً ميتاً إلا الواحد بعد يصيده قانص أو يفترسه سبع فما يدل عليه القياس أنها إذا أجست بالموت تكمن فى مواضع خفية فتموت فيها فلولا ذلك لامتلات الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء ، وتحدث الأمراض والوباء .

فانظر إلى هذا الذى تخلص الناس إليه بالفكر والروية كيف جعل طبعاً فى البهائم ليسلم الناس من مغبة ذلك .

وأما ما جعل بين الناس عيشه من الأنعام والطير والهوام فلقدرة الناس على نقله والتدبير فى دفع أذيته فقد نزع منه ماجعل فى الوحوش وهو دليل على أن العالم ليس بإهمالٍ .

[تأمل وجه الدابة]

كيف هو فإنك ترى العينين شاخصتين أمامها لتنظر مابين يديها فلا تصدم حائطاً ، ولا تردى فى حفرة وتحرس نفسها وفارسها وترى الفم مشقوقاً شقاً فى أسفل الخطم لتتمكن من العض على العلف ، فإنه لو كان فوها فى مقدم الخطم كمكان الفم من الإنسان فى مقدم الذقن لمااستطاعت أن تتناول شيئاً من الأرض ألا ترى أن الإنسان لا يتناول الطعام بفيه ، ولكن بيده فلما لم يكن للدابة يد تتناول به العلف جعل خطمها مشقوقاً من أسفله لتضعه فى العلف ثم تقصمه من مقصمه ، وأعينت بالجحفلة(٢٩) لتقمقم بها ماقرب منها وما بعد ، فلا يفوتها شىء من طعام ، وإن شك شاك فى الذنب والمنفعة فيه فقلنا بمبلغ علمنا أن لذنب الدابة أسباباً منها : أنها بمنزلة الطبق على الدبر ، والحيا جميعا يواريهما ليسترهما .

ومنها : أن ما بين الدبر ومراق البطن من الدابة وضراً بذا تجتمع عليه الذباب والبعوض ، والقردان ، والحلمة فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها على ذلك الموضع .

---

(٢٩) الجحفلة للحافر : كالشَّفَة للإنسان .

ومنها : أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فإنه لما كان قوامها على الأربع بأسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن على التصرف ، والتقلب ، والتلفت كان لها فى تحريك الذنب مسرة وراحة .

وعسى أن يكون فيه أسباب أخرى يقصر عنها الوهم ، ويزدرى بها السامع إذا سمعها لأنه لايعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة إليها فمن ذلك أن الدابة ترتطم فى الوحل فلا يكون شيء أعون على نهوضها من الأخذ بذنبها .

[انظر إلى مشفر الفيل]

وما فيه من لطف التدبير ، فإنه صار يقوم له مقام اليد فى تناول العلف والماء وإيراده إلى جوفه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكان العنق ذلك الخرطوم الطويل ليسدله فيتناول به حاجته وجعل أجوف لأنه وعاء لما يحمل إلى صدره من طعامه وشرابه وأيضاً فهو سلاحه وبه يعطى ويتناول ويقابل ، ويصول فمن الذى عوضه مكان العضو الذى عدمه ما يقوم له مقامه إلا الرؤوف بخلقه كيف يأتى مثل هذا بالإهمال كما قال الظلمة .

فإن قلت : ما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام أجبنا بمبلغ علمنا فقلنا : إن رأس الفيل ، وأذنيه ونابيه أمر عظيم وثقل ثقيل فلو كان ذلك على عنق لهدها وأوهنها فجعل رأسه ملصقاً لكيلا يناله ما وصفنا ، وخُلق له مكان هذا المشفر ليتناول به غذاءه فصار مع عدمه العنق مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته .

وليكون اختلاف الخلق أدل على القدرة والتدبير فيتناول العلف بمشفره وآخر بعنقه وآخر بيده وآخر بمنقاره ويكون لبعض معقفاً[٣٠] كالصولجان إلى زوره[٣١] وآخر معقفاً إلى جانبه ، وآخر عريضاً ، وآخر كالطبرزين ، وآخر كالمحلب وذلك على مقدار ما يصلح لمعاشهم فى لقط أو صيد وغير ذلك .

(٣٠) العقف : العطف والتلوية ، وتعقف أى عطفه .

(٣١) الزور : الصدر ، وقيل : وسط الصدر ، وقيل : أعلى الصدر ، وقيل : مُلتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت ، وقيل : هو جماعة الصدر من الخُفِّ ، والجمع أزوار .

ومن الحيوان من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع اقتداراً من رب العالمين على خلق ما يريد كيف يريد وهو على كل شيء قدير .

[فكـــر فى خلق الزرافــة]

واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء أصناف من الحيوان فرأسها وجلدها جلد نمر ، وعنقها عنق جمل وأظلافها أظلاف بقر حتى أن ناساً زعموا أن نتاجها من فحول شتى وسبب ذلك أن أصنافاً من حيوان البر فيما ذكروا إذا وردت على بعض الماء تنزو على بعض السائمة فتنتج مثل الشخص الذى هو كالملتقط من أصناف شتى .

وهذا مما لايصح فى القياس لأنه ليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف فلا الفرس تلقح الجمل ، ولا الجمل يلقح البقر وإنما يكون هذا من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج من بينهما البغل ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع[٣٢] على أنه ليس يكون فى الذى يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما يكون فى الزرافة عضو من الفرس ، وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذى تراه فى البغل فإنك ترى رأسه ، وأذنيه ، وكفله وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار حتى شحيجه[٣٣] أيضاً كالممتزج من صهيل الفرس ، ونهيق الحمار فهذا دليل على أنه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان كما زعم الزاعمون ، بل هى خلق عجيب من خلق الله الدالة على قدرته التى لايعجزه شيء وليعلم أنه خالق أصناف الحيوان كلها بجميع ماشاء منها فى الأعضاء فى أيها شاء ويفرق بين ماشاء منها فى أيها شاء . فأما طول عنقها فالمنفعة لها فى ذلك فلأن

---

(٣٢) السمع : ولد الذئب من الضبع .

(٣٣) الشحيج والشُّحاج : صوت البغل ، وبعض أصوات الحمار ، وقال ابن سيده : هو صوت البغل والحمار ، والغراب إذا أسنّ .

منشأها ومرعاها كما يذكر أهل الخبرة بها غياطل[٣٤] ذوات الأشجار شاهقة ذاهبة طولاً فهى تحتاج إلى طول العنق لتتناول تلك الأشجار فتقوّت من ثمارها .

[تأمل خلقة القرد]

وشبهه بالإنسان فى كثير من أعضائه أعنى به الرأس والوجه والصدر والمنكبين وكذلك أحشاؤه أيضاً شبيهة بأحشاء الإنسان كالذى يصف أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان وشهد به كتب الطب من ذلك ثم ما خص به من الذهن والفطنة التى بها يفهم عن سائسه ما يريد ، ويقبل التأديب ، ويعرف ما يومىء إليه ، ويحكى كثيراً مما يرى الإنسان يفعله حتى أنه يقرب من خلق الإنسان فى شمائله ، فمن التدبير فى خلقه على ما هو عليه أن يكون عبرة للإنسان فيعلم أنه من طينة البهائم وسحنتها إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب فلا يطغى ، ولايتمرد على خالقه ، فإنه لولا فضيلة فضله الله بها فى الذهن والعقل كان كبعض البهائم إلا أن فى جسم القرد فصولاً أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم ، والناشر ، والذنب المسبل ، والشعر المجلل للجسم كله لكن هذا لم يكن بالمانع للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطى مثل ذهن الإنسان وعقله فالفاصل بينه وبين الإنسان بالصحة هى النقص فى الذهن .

(**وهل سمعت ما يتحدث به عن التنّين**) والسحاب فإنه يقال : إن السحاب كالموكل به يختطفه حيث ما يقفه كما تخطف حجر المغناطيس الحديد حتى صار لايطلع رأسه من بطن الأرض[٣٥] خوفاً من السحاب ، ولا يخرج فى الفرط إلا مرة إذا أضحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيم .

فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويخطفه إذا وجده إلا ليدفع عن الناس ضره .

---

(٣٤) الغيطل : جمع غيطلة ، والغيطلة : الأجمة ، فكل جماعة من الشجر أو العشب ، أو كل ملتف مختلط ، يقال له : غيطلة .

(٣٥) فى هامش الأصل : هنا بخط دقيق بدل قوله : من بطن الأرض ، من بطن الماء فهو ملازم لقعر البحر دائماً ، خوفاً من السحاب إلخ .

فإن قلت : ولم خلق التنين أصلا ؟ : قلنا : للتخويف والترهيب وللنكال فى موضع ذلك فهو كالسوط المعلق يخوف به أهل الريب أحياناً للتأديب والموعظة .

[فكــر فى ضروب من الفـطن]

جعلت فى البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة لا بعقل وروية فقد يقال : إن الأيّل تأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً ، ويمتنع من شرب الماء خوفاً من أن يدب فى جسمه فيقتله .

وإنه يقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيجاً ولايشرب منه حتى يعلم أن السم قد تفرق ، وأن الذى أكل قد انهضم وحينئذ يشرب .

فانظر إلى ما جعل فى طباع هذه البهيمة من الصبر على الظمأ الغالب خوفاً من المضرة فى الشرب ، وذلك مما لا يكاد الإنسان العاقل أن يضبطه من نفسه .

ومن الحديث المستفيض أن الثعلب إذا أعوزه الطُعم تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فإذا وقعت عليه لتنهشه، وثب عليها فأخذها فمن أعان الثعلب العديم العقل ، والنطق والروية بهذه الحيلة إلا من كان توجه بتوجيه الرزق له من هذا ، وشبهه فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثيرٍ مما يقوى عليه السباع من مساورة الصيد أعين بالذهن والفطنة والاحتيال لمعاشه .

ويتحدث عن الدلفين أنه يلتمس صيد الطير فتكون حيلته فى ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويشدخه حتى يطفو على الماء ، ثم يكمن تحته ويثير الماء الذى حوله حتى يتبين شخصه فإذا وقعت الطير على السمك الطافى وثب عليها فاصطادها .

فانظر إلى هذه الحيلة اللطيفة كيف جعلت طبعاً فى هذه البهيمة لبعض المصلحة .

واسمع مايحدث به عن التمساح من أنه يجمع فتات اللحم الذى يأكله فى تضاعيف أسنانه وتدود فيتأذى فيخرج إلى الساحل فيفتح فاه كالميت فيحسبه

الطير ميتاً فيسقط على فيه فيلتقط الدود فإذا علم أن فاه قد نظف انطبق فوه على الطير فابتلعه فقالوا (أكافئك مكافأة التمساح) .

[تأمـل الذرة الحقيرة]

هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها فى طبقتها فمن أين هذا التقدير ؟! والصواب فى خلق الذرّة إلا من التدبير القائم فى صغير الخلق وكبيره وترى الذر يلتقى فى طريقه فيتواقف الذرتان كما يسلم الرجل على صاحبه إذا لقيه ويسأله عن حاله وخبره .

[انظـــر إلى النمــل]

واحتشاده فى جمع القوت ، وإعداده للشتاء لأنها تستتر فيه فلا تخـرج فإنك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى بيتها بمنزلة جماعة من الناس تنقل طعاماً ، أو غيره ، بل ترى النمل فى ذلك من الجد والتشمير ما ليس للإنسان مثله وتراه يتعاون على النقل كما يتعاون الناس على العمل .

ثم إنه يعمد الحب فيقطعه كيلا ينبت فيفسد عليه ، وإن أصابه ندىً أخرجه فيبرزه حتى يجف ثم لايتخذ الزبية إلا فى نشز من الأرض لكيلا يفيض عليها السيل فيغرقها وكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل بخلقة خلق عليها لمصلحته .

انظر إلى هذا الذى يقال له الليث[٣٦] ويسمى بالسريانية أسد الذباب ، وما أعطى من الحيلة والرزق فى طلب معاشه ، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع بالقرب منه تركه ملياً حتى كأنه ميت لاحراك به ، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيباً رفيقاً حتى يكون بحيث يناله وثبة ، ثم وثب عليه فأخذه فاشتمل عليه بجسمه كله مخافة أن يثب الذباب فينجو منه ، وتجده أيضاً يتحرى غمز جناحيه وقبضهما بيديه ورجليه ليبطل فعلهما فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ، ثم يقبل عليه فيبرشقه ويحيا بذلك منه .

---

(٣٦) الليث : ضَرْبٌ من العناكب ، وليس شيءٌ من الدواب مثله فى الحِذق ، وصواب الوثبة والتسديد ، وسرعة الخطف والمُداراة ، وإذا عاين الذباب ساقطاً بالأرض ، وسكّن جوارحه ، ثم جمع نفسه ، وأخّر الوثب إلى وقت الغرة .

(**فأما العنكبوت**) فإنه ينسج ذلك النسج شركاً لا يقدر على مثله الآدميون ومصيدة للذباب ، ثم يكمن فى جوفه فإذا نشب[٣٧] فيه الذباب أحال عليه يلدغه ساعةً بعد ساعةً ويمصه ويجعله قوتاً فيتعيش بذلك فذلك يحكى صيد الكلاب والفهود ، وهذا يحكى صيد الأشراك والحبائل فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل فى طبعها ما لايبلغه الإنسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها . ولا تزرى بالشيء عندك أن تكون العبرة فيه بالذرة والنملة وما أشبه ذلك فإن المعنى النفيس قد يتمثل بالمثل الحقير ، ولايقصر به بذلك كما لايقصر بالدينار ، وهو من ذهب أن يوزن بمثقال من الحجر والحديد .

[تأمــل جسم الطائر وخلقتــه]

فإنه حين قدّر أن يكون طائراً فى الجو خفف جسمه وأُدمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على ثنتين ، ومن الأصابع الخمس على الأربع ، ومن منفذى الزبل والبول على واحد يجمعهما .

ثم خلق ذاجوّ مجدود محس[٣٨] ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيفما توجه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء ، وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات متان لينهض به للطيران ، وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ، ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقة الإنسان وخلق له منقاراً صلباً جاسياً يتناول به طعمه فلا يتشجج من لقط الحب ، ولايتقصف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة فى الجوف يطحن له الطعام طحناً فيستغنى عن التقدم فى مضغه ، واعتبر ذلك بأن عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الإنس صحيحاً ، ويطحن فى أجواف الطير حتى لا يرى له أثر .

---

(٣٧) نشب الشيء فى الشيء نشباً ، كما ينشب الصيد فى الحبالة أى علق فيه .

(٣٨) قال الطباخ فى نسخته : هكذا ، وفيه تحريفٌ ، ولعل الصواب ذا حوّية محدودب محنى ليسهل عليه إلخ وبه يستقيم المعنى ، والحوية كغنية استدارة كل شيء كما فى القاموس .

ثم جعل أيضاً مما يبيض بيضاً ، ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران ، فإنه لو كانت الفراخ تنجل فى جوفه ، وتمكث فيه حتى تستحكم وتكبر لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران .

أفلا ترى كيف يوجد كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذى قدر أن يكون عليه لم صار الطير المسخر السابح فى هذا الجو يقعد على الطير فيحضنه أسبوعاً وأسبوعين ومن الطير من يلقط الطُعم بعد أن يستقر فى حوصلته فيغذو به فراخه لأى معنى يحتمل هذه المشقة ، وليس بذى روية ولا تفكير فى عاقبة ، ولا يؤمل فى فراخه مايؤمل الإنسان فى ولده من العز والبر ، والرفد وبقاء الذكر .

فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها هو ولا يفكر فيها وهى دوام النسل وبقاؤه .

[انظـر إلى الدجاجـة]

كيف تهيج لحضن البيض ، والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر قِط ، بل تنبعث لذلك بعثة فتنفخ وتقاق وتمنع الديك نفسها وتمتنع من الطعام حتى يجتمع لها البيض وتحضنه وتفرخ فلم كان ذلك منها إلا لإقامة النسل ولا روية لها ولا فكر فى عاقبة .

[فكر فى خلق البيضـة]

وما فيها المح الأصفر الخاثر ، والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشو به الفرخ وبعضه ليغتذى به إلى أن تنجاب عنه البيضة ، وما فى ذلك من التدبير فإنه لما كان نشو الفرخ فى تلك القشرة المستحصفة التى لا مساغ لشيء إليها جعل معه فى جوف البيضة من الغذاء ما يكفى به إلى خروجه منها كمن يحتبس فى حصن حصين لا يوصل إلى ما فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفى به الى خروجه منه .

[فكر فى حوصلة الطائر]

وما قدرت له فإن مسلك الطعم إلى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطُعم إلا قليلاً قليلاً فلو كان الطائر لايلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى القانصة

لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفى طعمه ، وإنما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى ما أدرك فيها من الطعم بسرعة ثم ينفذ إلى القانصة على مهل .

وفى الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب أسهل عليه .

فإن كان اختلاف الألوان والأشكال فى الطير إنما يكون من قبل امتزاج الأخلاط واختلاف مقاديرها بالهرج والإهمال .

فهذا الوشى الذى تراه فى الطواويس والتدرج والدراج على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالأقلام كيف يأتى به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف .

تأمل ريش الطير كيف هو فإنك تراه منسوجاً كنسج الثوب من سلوك دقاق قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط ، والشعرة إلى الشعرة ، ثم ترى ذلك النسج إذا مددته ينفتح قليلاً ، ولا ينشق ليتداخله الريح فيقل الطائر إذا طار .

وترى وسط الريشة عموداً غليظاً قد نسج عليه ذلك كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته ، وهى القصبة التى تكون فى وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف ليخف على الطائر فلا يعوقه عن الطيران .

هل رأيت هذا الطائر الطويل الساقين ، وعرفت المنفعة له فى طول ساقيه ، فإنه يرعى أكثر ذلك فى ضحضاح فتراه يركز على تينك الساقين كأنه زبية فوق مرقب فيتأمل ما يدب فى الماء ، فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطاً رقيقا حتى يتناوله .

ولو كان قصير القائمتين كان حين يخطو نحو الصيد ليأخذه يشق بطنه الماء فيثوره ، ويذعر منه الصيد فيتفرق عنه فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه .

تأمل ضرباً من التدبير فى خلق الطير فإنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق ، وذلك ليتناول طعامه من الأرض ، ولو كان طويل الساقين قصير

العنق لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع طول العنق بطول المنقار ليزداد المطلب عليه سهولة ، وله إمكاناً أفلا ترى أنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة .

[انظـر إلى العصافيـر]

كيف تطلـب أكلها بالنهـار كله فلا هـى تفقـده ، ولا هى تجـده مجموعاً معـداً بل تناله بالحركـة والطلب وكـذلك تجد الـرزق كلـه فسبحان الذى قـدره كيف فرقـه وبعده ، ولم يجعلـه مما لا يقدر عليـه إذا جعل بالخلـق الحاجة إليه ولم يجعله مبذولاً فينال بالهوينا إذا كان لاصلاح للخلق فى ذلك . فإنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم ستكب عليه ، ولا تقلع عنه حتى تبشم فتهلك ، وكان الناس سيصيرون بالفراغ والكفاية إلى غاية الأشر حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش . أعلمت ماطُعم هذه الأصناف من الطير التى لا تخرج إلا ليلاً كمثل البوم والخفاش والهام فإنه يقال : إن معاشها فى هذا الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد واليعاسيب وغيرها ، وذلك أن هذه الضروب مبثوثة فى الجو لا يخلو منها موضع واعتبر ذلك بأنك إذا وضعت السراج بالليل فى صدَح أو عرصة[٣٩] دار اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير فمن أين يأتى ذلك كله إلا من القرب؟! .

فإن قيل : إنه يأتى من الصحارى والبرارى . قيل له : كيف يوافى تلك السرعة من موضع بعيد ؟ وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً فى دار محفوفة بالدور فيقصد إليه مع أن هذه الضروب ترى عياناً تتهافت على السراج من قرب ؟! فيدل ذلك على أنها منتشرة فى كل موضع من الجو .

وهذه الأصناف من الطير تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطير التى لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة فى الجو .

---

(٣٩) العرص : خشبة توضع على البيت عرضاً إذا أرادوا تسقيفه ، وتلقى عليه أطراف الخشب الصغار ، وقيل : هو الحائط يجعل بين حائطى البيت لايبلغ به أقصاه ، وعرصة الدار : وسطها ، وقيل : هو ما لابناء فيه .

واعرف مع ذلك المعنى فى خلق الله تعالى هذه الضروب التى عسى أن يظن ظان أنها فضل لا معنى لها . خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع بل هى إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشرتين ، وأسنان ووبر ، وهو يحيض ويحبل ، ويلد أولاداً ويرضع ويبول ، ويمشى إذا مشى على أربع ، وكل هذا خلاف صفة الطير . وهو أيضاً مما يخرج بالليل ويتقوت بما يسرى فى الجو من الفراش وما أشبهه .

وقد قال قائلون : لا طعم للفراش وما أشبهه ، وقال قائلون : لا طعم للخفاش ، وإن غذاءه من النسيم وحده ، وهذا ينكر من وجهين إحداهما خروج ما يخرج من الثفل والبول ، فإن هذا لا يكون إلا من طعم .

والأخرى أنه ذو أسنان ولو كان لا يطعم لم يكن للأسنان معنى وليس من الخلقة شىء لا طعم له .

فأما المآرب فيه فموصوفة فى كتب الطب حتى إن زبله يدخل فى بعض الأكحال ومن أعظم الأرب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه وتصرفها فى كل ماشاء لضروب من المصلحة .

تحدث رجل صدوق عن هذا الطير الصغير الذى يقال له : ابن نمرة ، هو الدخل أنه قد كان عشش فى بعض الشجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشها شاحية فاغرة فاها لتبتلعه فبينا هو يتقلب ويضطرب فى طلب الحيلة للنجاة منها إذ وجد حسكة فحملها فألقاها فى فم الحية ، فلم تزل تلتوى وتتقلب إلى أن ماتت أفرأيت لو لم يُحَدّث بهذا الحديث أكان يخطر ببالك أن يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة فاعتبر بها فى كثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا عند الحادث يحدث والخبر يسمع .

[انظر إلى النحل]

واحتشاده فى صنعة العسل ، وتهيئة البيوت المسدسة على عمل مايصلح لصنعته ، وما يرى فى ذلك من دقائق الفطنة التى وصفها المتكلمون فى الطبايع فإنك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً ، وإذا نظرت إلى معمول

وجدته شريفاً عظيماً موقعه من الناس ، وإذا رجعت إلى العامل وجدته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك . ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل للذى طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الإنسان .

[انظر إلى هذا الجراد]

ما أضعفه وأقوى فعله فإنك إذا تأملت خلقته رأيته كأضعف الأشياء ، وإذا ازدلفت عساكره نحو بلدة من البلدان لم يستطع أحد أن يحميها منه . ألا ترى ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله ليحمى بلدة من الجراد لم يقدر على ذلك أفليس ذلك من الدلائل على قدرة الخالق أنه يبعث أضعف خلقه على أقوى خلقه فلايستطيع دفعه .

ثم انظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالأيدى كصنعة البشر متى كانت تجتمع منه مثل هذه الكثرة ، وفي كم من سنة كانت ترتفع فاستدلل بذلك على القدرة التى لايؤودها شيء ولا يكبر عليها .

[تأمل خلق السمك]

ومشاكلته للأمر الذى قدر أن يكون عليه فإنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذى رية لأنه لايستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة ، وجُعلت له مكان القوائم أجنة شداد يضرب بها من جانبيه كما يضرب النوتى بالمجاذيف من جانبى السفينه ، وكسى جسمه جلوداً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات ، وأعين بفضل حس في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من بعد بعيد فينتجعه ، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه ؟! . وقد ذكر أرسطاطاليس أن بين فيه[40] إلى صماخيه[41] منافذ فهو يعب الماء بفيه ويرسله

(٤٠) فيه : فمه .

(٤١) الصماخ من الأذن : الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس ، ويقال : إن الصماخ هو الأذن نفسها .

من صماخيه فيتروح إلى ذلك كما يتروح غيره من الحيوانات التى تنسم هذه النسيم .

[فكر فى كثرة نسل السمك]

وما خص به من ذلك فإنك ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض ما لايحصى عدده كثرة ، والعلة فى ذلك أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوانات ، فإن أكثرها تأكل السمك حتى السباع أيضاً فإنك ترى فى حافات الآجام[٤٢] عاكفة على الماء الصافى لتصيد السمك ، فإذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير تأكل السمك ، والناس يأكلون السمك ، والسمك يأكل السمك ، وكان فى البحر ذوات لا طعام لها إلا السمك فالتدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة .

وإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق ، وقصر علم المخلوقين فانظر إلى ما فى البحار من ضروب السمك ، ودواب الماء والأصداف التى لا تحصى كثرة ولا يعزف منافعها إلا الشىء بعد الشىء يدركه الناس بأسباب تحدث كما قد يقال فى صبغ القرمز أنه إنما عُرف بأن كلبة كانت تجول على شاطىء البحر بصور فوجدت شيئاً من الذى يسمى الحلزون فأكلته فاختضب حطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً للقز ، وأشباه هذا مما يقع الناس عليه حالاً بعد حال .

[انصرف الآن إلى خلق الإنسان]

وما فيه من الحكمة وما فيه من الدلالة على التدبير والعمل فأول ذلك ما يدبر فيه من الجنين من الرحم حين لا حيلة عنده فى تلمس غذاء ، ولا دفع أذى فإنه يجرى إليه من دم أمه ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه ، واستحكم بدنه وقوى أديمه على مباشرة الهواء ، وبصره على ملاقاة الضوء هاج الطلق بأمه وأزعجه أشد ازعاج وأعنفه حتى يولد ، فإذا ولد صرف ذلك الذى كان يغذوه من دم أمه إلى ثدييها فانقلب إلى ضرب آخر

---

(٤٢) الأجم : الحصن ، والجمع آجام ، وهو كل بيت مربع مسطح .

من الغذاء ، هو أشد موافقة للمولود من الدم أعنى اللبن فيوافيه اللبن فى وقت حاجته إليه ، فإنه حين يولد فقد تلمض ، وحرك شفتيه للرضاع فيجد ثدى أمه كالإداوتين المعلقتين لحاجته فلايزال يغتذى باللبن مادام رطب البدن رقيق الأمعاء حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد عظمه ولحمه طلعت عليه الطواحين التى هى الأسنان يمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل إساغته فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أدرك ، وكان ذكراً طلع الشعر فى وجهه ، وكان ذلك هو علامة الذكر وعز الرجل الذى يخرج به من حد الصبى وشبه النساء ، وإن كانت أنثى بقى وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها البهجة والنضارة التى تحرك الرجال لما فيه من دوام النسل .

[وفكر الآن فى أمر الإنسان]

وما يُدَبَّر به فى هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثله يمكن أن يكون عليه بالإهمال ؟! أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو فى الرحم ألم يكن سيذوى ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء ؟! ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن يستبقى فى الرحم كالموءود فى الأرض ؟! ولو لم يوافه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذى بغذاء لايلائمه ؟! ولايصلح عليه بدنه ولو لم تطلع له الأسنان فى وقتها ألم يكن سيمتنع عليه المضغ للطعام وإساغته أو يقيم على الرضاع ولايشتد بدنه ولا يصلح لعمل ثم يشغل أمه بنفسه عن تربيته ولد غيره ؟! ولو لم يكن شعر يخرج فى وجهه فى وقته ألم يكن سيبقى فى هيئة الصبيان والنساء ؟! فلا يرى له جلالة ولا هيبة ولا وقار فمن الذى كان يرصده حتى يوافيه بكل شىء من هذه المآرب فى وقته إلا الذى أنشاه خلقاً بعد إذ لم يكن ثم توكل بمصلحته بعد إذ كان ولئن كان الإهمال يأتى بمثل هذا التدبير فقد نجد فى القياس أن يكون العمدة والتقدير يأتى بالخطأ والمحال لأنه ضد الإهمال وهذا خلف من القول .

[فكر فى أمر الإنسان فى باب آخر]

وهو ولادته حين يولد غبياً غير ذى عقل وفهم فإنه لو كان يولد عاقلاً فاهماً لأنكر العالم عند ولادته حتى يبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لايعرفه ، وورد على ما لم ير مثله ، فاعتبر ذلك بأن من سبى من بلدٍ إلى بلدٍ وهو متحنك عاقل يكون كالواله[٤٣] الحيران ، ولا يتشرع فى تعليم الكلام وقبول الأدب كما يتشرع الذى ينشأ صغيراً . ثم لو كان يولد عاقلاً وجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا ومرضعاً ومعصباً بالخرق ومسجى فى المهد على أنه لايستغنى عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ، ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والموقع فى القلوب ومن الرحمة والفرح ما يوجد للطفل فصار المولود يدخل العالم غبياً غافلا عما فيه الناس فتلقى الأشياء بذهنٍ ضعيف ومعرفة ناقصة ، ثم لا يزال يتزيد فى المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شىء حتى يألف الأشياء ، ويتمرن عليها فيخرج من حد التأمل لها والحيرة إلى التصرف فى الأمور والاضطراب فى المعاش .

وفى هذا وجوه أخر ، فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع تربية الأولاد ، وما دبر أن يكون للوالدين فى الاشتغال به من المصلحة وما توجب التربية للآباء على البنين من المكافأة بالبر والعطف عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الأولاد لايألفون آباءهم ولا الآباء يألفون أبناءهم لأنه كان الأولاد يستغنون عن تربية الآباء، وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون حتى لا يعرف الرجل أباه ولا أمه ، ولا يعرفه أبوه وأمه ولا يمتنع من نكاح أمه ، وأخته إذا كان لايعرفهما، وأقل ما يكون من ذلك أن يخرج من بطن أمه وهو يعقل فيرى منها ما يحل له ، ولا يحسن به أن يراه .

أو لايرى كيف أقيم كل شىء من الخلقة على غاية الصواب ، وتنكب فيه الخطأ دقيقه وجليله . وتخبر كتب الطب والطبائع أن الجنين يخلق من ماء الذكر

---

(٤٣) الوله : ذهاب العقل ، والتحيُّر من شدة الوجد .

والأنثى جميعا فالذكر يقذف ماءه فى رحم الأنثى والأنثى تقذف ماءها فى رحمها لا يعدوها ثم يختلطان فى الرحم فيكون منهما الجنين بإذن الله وقدرته .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والأنثى جميعاً على ما يشاكل ذلك فجعلت للذكر إذا كان يحتاج أن يقذف ماءه فى غيره آلة ناشزة تمتد حتى توصل النطفة إلى الرحم ، وجعلت للأنثى إذا احتاجت إلى أن تشتمل على الماءين جميعا وتحمل الولد حتى يستحكم وعاء قعيراً يصلح لذلك .

فكر فى أعضاء البدن أجمع وتقدير كل عضو منها للأرب ، فيها فاليدان للعلاج والرجلان للسعى ، والعينان للاهتداء ، والأذنان للسمع ، والأنف للشم ، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم ، والكبد للتخليص ، والمنافذ لنفض الفضول ، والأوعية لحملها ، والفرج لإقامة النسل . وكذلك جميع الأعضاء إذا تأملتها وجدت الكل منها قد قدّر على صوابٍ وحكمةٍ .

فإن زعمت أن هذا من فعل الطبيعة ، سألناك عن هذه الطبيعة أهى شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال أم ليست كذلك ؟ فإن أوجبت لها العلم والقدرة فما امتناعك من إثبات الخالق ، فإن هذه هى صفة الخالق .

فإن زعمت أنها تفعل هذه الأفعال بغير علمٍ وعمد فهو محال لأن أفعالها ما قد ترى من الصواب والحكمة . فعلم أن هذا الفعل للخلاق العظيم وأن الذى سميته طبيعة هى سنته . سببه من خلقته الجارية على ما أجراها عليه(٤٤) .

---

(٤٤) فى هامش الأصل : والطبيعة على قولك تقتضى إما فاعلاً أو مفعولاً ، فإن أردت الفاعل لزم أن تجعلها متقدمة لمفعولاتها ، وهذا كقولنا فى البارىء .

وإن أردت مفعولاً ، فلكل مفعول فاعل ، فما ينكر أن يكون الله !!

وإن قلت إن الطبيعة والطبائع لم يزالا أتيت بمحالٍ ، وقلت باثنين قديمين .

[فكـر فى وصول الغذاء إلى البـدن]

وما فيه من التدبير ، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطحنه المعدة ، وتبعث بصفوه إلى الكبد فى عروق دقاق واشجة بينهما قد جعلت كالمصفاة للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شىء غليظ خشن فينكؤها وذلك أن الكبد رقيقة لاتحتمل العنف ، ثم إن الكبد تقلبه دماً وتنفذه إلى البدن كله فى مجارٍ مهيأة لذلك بمنزلة المجارى التى تهيأ للماء حتى يطرد فى الأرض كلها وينفذ مايخرج من الخبث والفضول إلى مغايص قد أعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة الصفراء أجرى إلى المرارة التى هى مقرونة بالكبد ، وما كان من جنس السوداء أجرى إلى الطحال وما كان منه ، من البلة والرطوبة أجرى إلى المثانة .

[تأمـل حكمة التدبيـر]

فى تدبير تركيب البدن ، ووضع هذه الأعضاء مواضعها وإعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلك الفضول ، ولاتنشر فى البدن فتسقمه ولو أخذت تمثالاً صغيراً من شبة أو نحاس ، أو شمع فأردت أن تجعله كبيراً هل كان يمكنك ذلك إلا بأن تكسره وتصوغه من الرأس صياغة أخرى ؟!

أفلا ترى جسم الصبى كيف ينمو بجميع أعضائه ، وهو ثابتٌ على شكله وعينه وهيئته لا يتزيد ، ولا يتنقص وأعجب من هذا تصويره فى الرحم حيث لا تراه عين ، ولا تناله يد يخرج سويًا مستوياً بجميع ما به قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح ، والعوامل ، والحوامل إلى ما فى تركيب أعضائه من العظام ، واللحم ، والشحم والمخ ، والعصب ، والعروق ، والغضاريف من دقائق التركيب ، والتقدير والحكمة .

انظر إلى ماخص به الإنسان فى خلقه تشريفاً وتفضيلاً له على البهائم فإنه خلق ينتصب قائما ويستوى جالسًا ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه ، ويمكنه العلاج والعمل فيها ، ولو كان مكبوباً على وجهه كذوات الأربع لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال . ولهذا المعنى صار الإنسان اسمه باليونانية مشتقاً من النظر إلى العلو كما قال قائلون أو من تأمل الأمور العلوية كما قال أفلاطون .

انظر إلى هذه الحواس التى منها تشرف النفوس على الأشياء كيف جعلت فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الأشياء ، ولم يجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات التى تصيبها من مباشرة العمل والحركة . ولا فى الأعضاء التى تجىء وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تلقيها واطلاعها نحو الأشياء فلما لم يكن لها فى شىء من هذه الأعضاء مواضع كان الرأس أهنأ المواضع لها .

وقد أحسن فى وصف الرأس بعض الحكماء فقال : هو صومعة الحواس . من جعل الحواس خمساً إلا من جعل المحسوسات مثل ذلك قدّرها خمساً تلقى خمساً لكيلا تفوت الحواس شىء من المحسوسات .

فإن قلت : فلعل فى الأجسام محسوسات أخرى ليس تلقاها حواس تدركها ؟ (قلنا) : محال أن يكون محسوسات ليس تلقاها حواس تدركها لأنها كانت تكون فضلاً لا معنى له ، وليس فى الخلقة شىء لا معنى له كالذى حكمت به الحكماء وشهدت عليه المحنة .

لم يخلق البصر إلا ليدرك الألوان والأشكال والأضواء . ولم يخلق السمع إلا ليدرك الأصوات فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كانت تكون فى الألوان منفعة ؟! ولو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها هل كان فى الأصوات أرب ؟! وكذلك سائر الحواس . ثم هذه كلها أيضاً ترجع متكافئة فإنه لو كان بصر ولم يكن ألوان لم يكن للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن أصوات لم يكن للسمع موضع .

انظر كيف قدر بعضها تلقاء بعض فجعل لكل حاسة محسوساً تعمل فيه ، ولكل محسوس حاسة تدركه . وفكر مع هذا فى أشياء جعلت متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها كمثل الضياء والهواء ، فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون ، ولو لم يكن هواء يؤدى الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره أن مثل هذا الذى وصفنا من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها تلقاء بعض وتهيئة أشياء أخرى بها تتم الحواس لايكون إلا بعمدٍ وتقديرٍ .

فكر فى الذى عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل فى أموره ، فإنه لا يبصر موضع قدمه ، ولا يعرف ما بين يديه ، ولا يفرق بين الألوان ولا بين المنظر الحسن والقبيح ، ولاينذر بحفرة إن هجم عليها ، ولابعدوّ أن يبعد ولايعرف إن أهوى إليه بسيف ، ولايكون له سبيل إلى تعلم شىء من هذه الصناعات كالنجارة والكتابة والصياغة ، حتى لولا بقاء ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى . وكذلك من عدم السمع قد يختل فى أمورٍ كثيرة فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات واللحون الشجية والمطربة ، وتعظم المؤنة على الناس حتى يتبرموا به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يكون كالغائب وهو شاهدٌ ، وكالميت وهو حيٌّ .

فأما من عدم العقل فإنه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيراً مما تهتدى إليه البهائم أفلا ترى كيف صارت هذه الجوارح ، والعقل ، وسائر الخلال التى بها صلاح الإنسان ، والتى لو فقد منها شىء لعظم ما يناله فى ذلك من الخلل فيوافى فى خلقه على التمام حتى لا يفقد منها شيئاً ، ولما كان ذلك لولا أن خلقه بعمد وتدبير .

والقول المجمل : إن الصانع جل ثناؤه إذا ثبت أنه حكيمٌ عدلٌ زالت عنه التهمة فيما فعله إذ هو أعرف بمنافع الإنسان ، ومصلحته ، وعواقب أموره ، وأن الصانع جل عن التمثيل كطبيب حاذق مأمون الخطا يعالج بما فيه مضض وألم ولا ينسب إلى قساوة قلبه ، ولا إلى جوره وإضراره بالعليل ، ولا إلى الخطأ(٤٥) .

فإن قلت : ولم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح حتى يناله مثل هذا الخلل ؟ قلنا : للتأديب والموعظة للواقع ذلك به ولغيره بسببه كما قد يؤدب ملوك الأرض بأشياء للتنكيل والموعظة ، فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد ويستصوب من تدبيرهم .

---

(٤٥) من قوله : والقول المجمل إلى هنا ، قال الطباخ فى نسخته : مثبت فى الهامش ، ويظهر أنه من الأصل بعد قوله بعمدٍ وتدبير .

ثم إن للذين بهم هذه البلايا من الثواب فى الآخرة إن صبروا وشكروا ، وأنابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى إنهم لو خيروا بعد البعث لاختاروا أن يردوا إلى البلاء ليزدادوا من الثواب .

[فكــر فى الأعضــاء]

التى خلقت أفراداً ، وأزواجاً وما فى ذلك من الصواب والحكمة ، فالرأس مما خلق فرداً ، ولم يكن خير أن يكون أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى رأس الانسان رأس آخر كان ثقلاً عليه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج إليها مجتمعة فى رأسٍ واحدٍ . ثم كان اللسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا أرب فيه وإن تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلا ، وإن تكلم من أحداهما بغير الذى يتكلم به من الآخر لم يدر السامع بأى ذلك يأخذ وأشباه هذا من الاختلاط . واليدان مما خلق أزواجاً ، ولم يكن للإنسان خير أن يكون له يد واحدة لأن ذلك يخل به فيما يعالج من الأشياء . ألا ترى أن النجار والبناء لو شلت إحدى يديه لم يستطع أن يعالج صناعته فإن تكلف ذلك لم يحكمه ولم يبلغ به مابلغه إذا كان له يدان يتعاونان على العمل .

[فكــر فى الصــوت]

وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف وما هى لها من المخارج ، وأعينت به من الهواء وكيف جعل شىء من الآلات لما خلق له[٤٦] . فكر فى تهيئة آلات الصوت والكلام فى الإنسان فالحنجرة كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان ، والشفتان ، والأسنان لصياغة الحروف والنغم ، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين ، ومن تقضب شفته لم يصح الفاء ، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء ، فما أحسن ما مثل الأولون مخرج الصوت بالمزمار الأعظم فشبهوا الحنجرة بقصبة

(٤٦) من قوله : فكر فى الصوت إلى هنا مثبت فى الهامش .

المزمار ، وشبهوا الرئة بالزق الذى ينفخ به من تحته ليدخله الريح ، وشبهوا العضلات التى تقبض على الرئة لخروج الصوت من الحنجرة بالأكف الذى تقبض على الزق حتى تجرى الريح فى المزمار ، وشبهوا الشفتين والأسنان التى تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالأصابع التى تختلف على فم المزمار فيصوغ صفيره ألحاناً غير أنه ، وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار للدلالة والتعريف فإن المزمار بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت لأن المزمار صناعى ، والصوت طبيعى ، والصناعة هى التى تحكى الطبيعة . ولكنه لما كانت الصناعة أظهر وأعرف عند العامة من الطبيعة صارت أفعال الطبيعة تمثل بأفعال الصناعة ليفهم ويوقف عليها . فإذا كانت الصناعة هى التى تتعجب من اللطف ، والحكمة فيما يحكى الطبيعة فبالحرى أن يتعجب من الطبيعة ، ولطف أفعالها ولئن كان الإهمال يضعف عما تأتى به الصناعة لهو عما تأتى به الطبيعة أضعف قد أنبأنا عما فى هذه الأعضاء من الغناء فى صفة الكلام ، وإقامة الحروف . وفيها مع الذى ذكرنا مآرب أخرى ففى الحنجرة يسلك هذا النسيم إلى الرئة فيروح عن الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع ، وباللسان تذاق الطعوم فيميز بينها ، ويعرف كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام والشراب ، وبالأسنان يمضع الطعام فيلين ويسهل ابتلاعه وهى بعد كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم فاعتبر ذلك بأنك ترى من سقطت أسنانه مسترخى الشفة مضطربها ، وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذى يدخل منه بقصد ، وقدر لايثج ثجاً فيغص به الشارب ، وينكا فى الجوف ثم هما بعد كالباب أو كالطبق على الفم يفتحمها الإنسان إذا شاء ، ويطبقهما إذا شاء وبهما حسن منظر الفم ألا ترى الذى قطع شفتاه قبح منظره غاية .

ففيما وصفنا من هذا بيان أن كل واحد من هذه الأعضاء تنصرف إلى وجوه من المآرب ، كما تنصرف الأداة الواحدة إلى أعمال شتى ، وذلك كالفأس يستعمل فى عمل النجارة ، والحفر ، والقتال ، وغيرهما من الأعمال ، وكذلك الشفة تصلح للتقبيل ولمص الماء ، وإقامة بعض الحروف ، وجمع المخارج ودفعها ولغير ذلك .

(**أما رأيت الدماغ**) إذا كشف عنه كيف تجده قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتمسكه من أن يضطرب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة لتقيه حد الصدمة ، والصكه تقع بالرأس ، ثم جلب الجمجمة بالجلد والشعر الذى هو فروة الرأس ليسترها من إفراط الحر ، والبرد . فمن خص الدماغ بهذا التحصين ، وقدره هذا التقدير إلا من خلقه فعلم أنه ينبوع الحسن ، والمستحق لكل هذه الحيطة بمنزلتها من البدن ، ومحل العقل فيه .

من جعل الجفن على العين كالغشاء ، والأشفار كالأشراج ، وأولجها فى هذا الغار وأظلها بالحجاج وما عليه من الشعر .

من غيب الفؤاد فى جوف الصدر وكساه المدرعة التى هى غشاؤه وحصنه بالجوانح ، وما عليها من اللحم والعصب يقى ، ولا يثقل وجعل شغافه فى حق يصونه ، وأمره على الجوارح ، والحواس فإليه ينتهى ما يؤديه بل من جعله مسكناً لجوهر الروح . من جعل فى الحلق منفذين أحدهما : للصوت ، وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والآخر : للغذاء ، وهو المرى الواصل إلى المعدة ؛ وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل الرئة فيبتل به . من جعل الرئة مروحة للفؤاد ، لا تفتر ولا تخل لكيلا تنحصر الحرارة فى الفؤاد فيؤدى إلى التلف .

من جعل لمنافذ البول والغائط إشراجًا يضمها ، ويضبطها لكيلا تجرى جرياً دائما فيفسد على الإنسان عيشه وكم عسى أن يحصى المحصى من هذا بل الذى لايحصى منه أكثر .

لم صارت المعدة عصبانية شديدة إلا أنها قدرت لهضم الطعام الغليظ ، ولم صارت الكبد رقيقة ناعمة إنها قدرت لقبول صفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة .

لم صار المخ الرقيق محصناً فى أنابيب العظام إلا لتحيطه وتصونه ، لم صار الدم السيال محصوراً فى العروق منزلة الماء فى الظروف إلا لتضبطه فلا يغيض . لم صار الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل . لم صار داخل الأذن ملتويا كهيئة اللولب إلا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى فيه إلى السمع ،

ولتنكسر حمية الريح فلا تنكأ فى المسامع كما قال آخرون . لم حمل الإنسان على فخذيه هذا اللحم الوثير إلا ليقيه من الأرض فلا يألم من الجلوس عليها كما يألم من قد نحل جسمه ، وقل لحمه إذا لم يحل بينه وبين الأرض حائل .

من جعل الإنسان ذكراً وأنثى إلا من خلقه متناسلاً .

من جعله متناسلاً إلا من جعله ميتاً .

من أعطاه آلات العمل إلا من جعله عاملاً من جعله عاملا إلا من جعله محتاجاً من ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه من خصه بالفهم إلا من أوجب له الجزاء .

من وهب له الحيلة إلا من ملّكه من ملكه الخلق إلا من ألزمه الحجة من يكفيه مالا تبلغه حيلته إلا من لايبلغ مدى شكره تبارك وتعالى لا تحصى نعمه .

ذكر أرسطاطاليس فى صنعة خلق الإنسان أن فى الفؤاد ثقباً مواجهة نحو الثقب التى فى الرئة سواء ليحمل الريح من الرئة فتروح عن الفؤاد حتى إنه لو اختلف الثقب ، وتزايل بعضها عن بعض لما وصلت الريح إلى الفؤاد فكان فى ذلك هلاك الإنسان .

أفيستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال أولا يجد شاهداً من قلبه يزعه عن هذا القول ، لو رأيت فرداً من مصراعى باب فيه كلوب أكنت تتوهم أنه كان هكذا بلا معنى ، بل كنت ستعلم أنه مصنوع تلقاء فرد آخر فيه رزة ليكون فى اجتماعهما ضرب من المصلحة ، وهكذا تجد الذكر من الحيوان كأنه فرد من زوج قد جعل له فرج مهيء تلقاء فرج الأنثى يلتقيان لما فيه دوام النسل وبقاؤه . فتباً وخيبة لأفيقوروس[٤٧] وأشباهه حين عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها .

لو كان فرج الرجل مسترخياً أبداً كيف كان يصل إلى قعر الرحم حتى يقر النطفة فيه ؟! ولو كان منعظاً أبدا كم يكون الرجل يتقلب فى الفراش ، ويمشى بين

---

(٤٧) أحد الفلاسفة القدماء .

الناس وشيء شاخص أمامه ، ثم كان فى ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة فى كل وقت من النساء والرجال جميعاً فيدعوهم تحريكهما إلى المباضعة وهذا على الأوان يؤديهم إلى الهلاك فقدر أن يكون مسترسلا فى أكثر ذلك لكيلا يبدو للبصر فى كل وقت ولا يكون على الرجل فيه مؤنة وجعلت فيه قوة الانتصاب عند الحاجة إلى ذلك لما فيه من دوام النسل وبقائه . أليس من حسن التقدير فى البناء أن يكون الخلاء فى أستر موضع من الدار فهكذا تجد المنفذ المهيأ للخلاء من الإنسان فى أستر موضع منه فإنه ليس بارزاً من خلفه ، ولا ناشزاً بين يديه بل هو مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم فتواريانه فإذا حضرت الحاجة إلى الخلاء ، وجلس لها الإنسان تلك الجلسة ألقى ذلك الموضوع منه منتصبًا متهيأ لانحدار الثفل(٤٨) .

[فكــر فى هذه الطواحــن]

التى خلقت للإنسان كيف جعلت الأسنان منها حداداً لقطع الطعام وهتكه وجعلت الأضراس عراضاً لرضه ، ومضغه فلم ينقص واحد من الصنفين إذا كان يحتاج إليهما جميعا .

[تأمل التدبير فى خلق الشعر والأظفار]

فإنهما إذا كانا مما يطول ويكبر حتى يحتاج إلى تخفيفه أولاً فأولا جعلا عديمى الحس لكيلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما ، ولو كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوجد له حس وألم كان الإنسان من ذلك بين أمرين كريهين إما أن يدع كل واحد منهما يطول حتى يفدخه ويثقل عليه ، وإما أن يخففه بوجع وألم يناله منه . لو نبت الشعر فى العين ألم يكن سيعمى البصر ، ولو نبت فى الفم ألم يكن سينغص على الإنسان طعامه وشرابه ولو نبت فى باطن الكف ألم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال التى تعمل بالراحة كالمصافحة وشبهها .

---

(٤٨) ثفل كل شيء وثافله : ما استقر تحته من كدره ، والثُّفل : ما سفل من كل شيء .

ولو نبت على فرج المرأة وعلى عوف الرجل ألم يكن سيفسد على الإنسان لذة الجماع ؟! فانظر كيف تنكب بالشعر هذه المواضع لما فى ذلك من المصلحة وأنبته فى المواضع التى هو لها زين ، ثم ليس هذا فى الإنسان فقط بل هو فى البهيمة أيضاً فإنك ترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه .

أفلا ترى الخلقة كيف تتخلى وجوه الخطأ والمضرة ، وتقع بوجوه الصواب والمنفعة إن المنانية وأشباههم حين اجتهدوا فى عيب الخلقة عابوا الشعر النابت فى الركب والأبطين ، والفخذ ، والعانة وإنما يكون هذا من الرطوبة تدفعها الطبيعة إلى هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب فى مستنقع الماء أو لا ترى أن هذه المواضع أستر وأهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها .

ثم إن هذا بعد حمل الإنسان من مؤنة هذا البدن ، وتكاليفه لما فى ذلك من المصلحة فإن اهتمامه بتنظيف بدنه وكسح ما يعلوه من الشعر والدرن مما يكسر شرته[٤٩] ، ويكف عاديته وشغله عن بعض ما يخرجه إليه الفراغ والبطالة .

[فكـر فى الـريق]

والمنفعة فيه فإنه جعل يجرى دائما إلى الفم ليبل الحلق ، واللهوات فلا يجف فإن هذه المواضع لو جفت كان فى ذلك هلاك الإنسان ، ثم كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً إذا لم يكن فى الفم بلة تنفذه يشهد بذلك ، قول أبقراط الرطوبة مطية الغذاء ، وقد يجرى مثل هذه البلة إلى مواضع أخرى من المِرة فيكون فى ذلك رجاء فعل من الأفعال الطبيعية .

[أعلمـت ما فى الأطفال من المنفعة فى البكاء]

فإن من قول الأطباء إن فى أدمغتهم رطوبة إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثاً جليلة ، وإن البكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة فى أبدانهم ، أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ، وأنت لا تعرف ذلك

---

(٤٩) شره الرجل إلى الطعام : إذا اشتد حرصه ، والشره الشديد الحرص .

فهكذا يجوز أن يكون فى كثير من الأشياء منافع لا تعرفها فلا تقصر على الشىء إنه لا منفعة فيه من قبل إنك لا تعرفها ، فإن كثيراً مما لا تعرفه أنت يعرفه غيرك وكثيراً مما يقصر عنه علم المخلوق يحيط به علم الخالق سبحانه .

طاش الوهم طيشة فقال : لو كان بطن الإنسان مشققاً مثل القنا لفتحه الطبيب إذا شاء فيعاين ما عرض من داءٍ فيه ، ويدخل يده فيعالج ما أراد إصلاحه منه ألم يكن أصلح من أن يكون مصمتًا محجوبًا من البصر واليد ، لا الطبيب يعرف ما يعرض فيه إلا بدلالات غامضة كمثل البول والمجسة ، وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة حتى يكون سبباً للموت ، فقيل له : لو هذا هكذا كان أول ما فيه أنه كان يسقط على الإنسان الوجل من الأمراض ، وانتظار الموت فيستشعر البقاء والسلامة فيخرجه ذلك إلى العتو[51] والأشر وقساوة القلب ، كما ذكرنا مراراً . ثم كانت الرطوبات التى فى البطن سترشح ، وتتحلب فيفسد على الإنسان مقعده ومرقده ، وثياب فضلته ، وزينته بل كان يفسد عليه عيشه ، ثم إن المعدة والكبد والفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الطبيعية المحتبسة فى الجوف ، فلو كان فى البطن فروج تنفتح حتى تصل العين إلى رؤيته ، واليد إلى علاجه لوصل برد الهواء إلى الجوف فباخت الحرارة الطبيعية ، وبطل عمل الأحشاء وكان فى ذلك هلاكه . أفلا ترى أن كل ما تذهب إليه الأوهام سوى ما جاءت به الخلقة خطأ وخطل .

[فكـر فى هذه الأفعال الطبيعية]

التى جعلت فى الإنسان تحمل من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها فإنه قد جعل لكل واحد منهما فى الطباع لنفسه محرك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضى الطعم الذى به حياة البدن ، وقوامه ، والكرى يقتضى النوم الذى هو راحة البدن ، وجموم قواه ، والشبق[52] يقتضى الجماع الذى يكون به دوام النسل وبقاؤه ، فلو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه

(٥٠) العتو : شدة الظلم .
(٥٢) الشبق : شدة الشهوة ، وطلب النكاح .

إليه ، ولم يجد من طباعه شيئاً يحفزه لذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً لشغل أو كسل حتى ينحل بدنه فيهلك كما قد يحتاج المرء إلى الدواء والعلاج أو شيء مما يصلح بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض أو الموت . وكذلك لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر فى حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك، ويدفعه حتى ينهك بدنه ، ولو كان إنما يتحرك للجماع بالرغبة فى الولد كان غير بعيد من أن يفتر عنه حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب فى الولد ولايحفل به .

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الإنسان وصلاحه بمحرك من نفس الطبيعة يحركه له ويحدوه عليه .

وقد وصفت الأطباء فى كتب الطب القوى الأربع التى فى البدن وأفعالها فالجاذبة هى التى تتولى قبض الغذاء وإيراده على المعدة ، والممسكة هى التى تحبس الطعام ريثما يفعل الطعام فيه فعله ، والهاضمة هى التى تطبخه وتستخرج صفوه وتبثه فى البدن ، والدافعة هى التى تحدر الثفل الفاضل بعد أخذ الهاضمة منه حاجتها .

ففكر فى تقدير هذه القوى للحاجة إليها ، والأرب فيها وما فى ذلك من التدبير والحكمة فلولا القوة الجاذبة ، بم كان الإنسان يتحرك لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ، ولولا الممسكة كيف كان الطعام يلبث فى الجوف حتى تهضمه المعدة ، ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذى يغذو به البدن ويسد خلله ، ولولا الدافعة بم كان الثفل الذى تخلّفه الهاضمة يندفع ويخرج منه أولاً فأولاً .

أفلا ترى كيف وكلت هذه القوى بالبدن ، والقيام بما فيه صلاحه فصار البدن بمنزلة دار للملك فيها له حشم وقوام موكلون بالدار فواحد لاقتضاء حوائج الحشم وإيرادها عليهم ، وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لعلاج ذلك ولتهيئته وتفرقته فى الحشم ، وآخر لكسح ما فى الدار من الأقذار والأقذاء ، وإخراجه منها .

فالملك فى هذا المثل هو الخلاق العليم مالك العالمين ، والدار هى البدن والحشم وهى الأعضاء ، والقوام هم هذه القوى الأربع ، ولعلك ترى ذكرنا لهذه القوى وأفعالها بعد الذى وصف فى ذلك من كتب الطب فضلاً فى القول وترديداً لأمر معروف ، وليس ذكرنا لهذه القوى على الجهة التى ذكرت فى كتب الطب ولا مذهبنا فيه ذلك المذهب لأن ذكرها هناك على مايحتاج إليه فى صناعة الطب وتصحيح الأبدان ، وذكرها ههنا على ما يحتاج إليه فى صلاح الدين وشفاء النفوس وتصحيح الدين كالذى أوضحنا بالوصف الشافى والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها .

تأمل هذه القوى التى فى النفس وموقعها من الإنسان أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله ، وكم من خلل كان سيدخل عليه فى أموره إذا لم يكن يحفظ ماله وما عليه وما أخذ ، وما أعطى ، وما رأى وما سمع ، وما قال ، وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ، ومن أساء إليه ، وما نفعه وما ضره ، ثم كان لايهتدى لطريق ولو سلكه مراراً لاتحصى ، ولايعقل علماً لو درسه عمره ، ولا ينتفع بتجربةٍ ولا يستطيع أن يعبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقاً أن ينسلخ من الإنسية إلى البهيمية .

[انظر إلى النعمة على الإنسان]

كيف موقع الواحدة منها دون الجميع ، وأعجب من هذه النعمة على الإنسان فى الحفظ النعمة عليه فى النسيان ، فإنه لولاه ماسلا أحد عن مصيبة ، ولا نقصت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيءٍ من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، ولا رجا غفلة من سلطان ، ولا فترة من حاسدٍ أفلا ترى كيف جعل فى الإ نسان الحفظ ، والنسيان هما مختلفان متضادان ، وجعل له فى كل واحد منها ضرب من المصلحة ، وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين وجعل له فى هذه الأشياء المتضادة التى تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة .

فكر فى هذا الخلق الذى خص به الإنسان دون جميع الحيوان أعنى الحياء ما أكبر قدره ، وأعظم غناه فلولا الحياء لم يقر الضيف ، ولم يوف بالعدات ، ولم

تقض الحوائج ولم ينجز الجميل ، ولم يتنكب القبيح فى شىء من الأشياء حتى إن كثيراً من الأمور المفترضة أيضاً إنما تفعل للحياء ، فإن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ، ولم يؤد أمانة ، ولم يعف عن فاحشةٍ ، أفلا ترى كيف وفَّى الإنسان جميع الخلال التى فيها صلاحه ورجاء أموره .

فكر فيما أنعم الله تعالى به على الإنسان فى هذا المنطق الذى يعبر به عما فى ضميره ، ويفهم عن غيره ما فى نفسه ، ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التى لا تخبر عن نفسها بشىء ولا تفهم عن مخبر شيئاً ، وكذلك الكتاب الذى به تقيد أخبار الماضين للباقين ، وأخبار الباقين للآتين ، وبه تجلد الكتب والعلوم ، والآداب وبه يعلق الناس ذكر ما يجرى بينهم من الحساب ، والمعاملات فلولا الكتاب انقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست العلوم وضاعت الآداب ، وعظم ما يدخل على الناس من الخلل فى أمورهم ، والمعاملات التى تجرى بينهم واختل نظام العالم .

ولعلك أن تقول إن الكتاب مما يخلص الناس إليه بالحيلة والفطنة ، وليس مما أعطيه الإنسان فى خلقه وطباعه ، وكذلك الكلام إنما هو شىء يصطلح عليه الناس فيجرى بينهم فلذلك ما صارا يختلفان فى الأمم المختلفة فلنسان هؤلاء غير لسان أولئك ، وكتاب أولئك غير كتاب هؤلاء ، والأمور الطبيعية ليس بين الناس فيها اختلاف ، فنقول فى جواب ذلك : إنه وإن كان للإنسان فى الأمرين جميعاً فعل وحيلة ، فإن الشىء الذى يبلغ ذلك الفعل ، والحيلة عطية وهبة من الله تعالى فى خلقته فإنه لو لم يكن لسان مهيؤ للكلام ، وذهن يهتدى به للأمور ، لم يكن ليتكلم أبداً ، ولو لم يكن له كف وأصابع مهيأة للكتاب لم يكن ليكتب أبداً واعتبر ذلك من البهائم التى لا كلام لها ولا كتاب .

[فكـر فيما أعطى الإنسان علمـه]

وما منع منه فإن أعطى جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه ، ومما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلائل والشواهد القائمة فى الخلق ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس ، وبر الوالدين ، وأداء الأمانة ، ومواساة أهل الخلة ، وأشباه

ذلك مما قد توجد معرفته ، والإقرار به فى الطبع والفطرة فى كل أمة . وكذلك أعطى الإنسان علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة والغراسة واقتناء الأغنام والأنعام ، واستنباط المياه ، ومعرفة العقاقير التى يستشفى بها من ضروب الأسقام ، والمعادن التى يستخرج منها أنواع الجواهر ، وركوب السفن والغوص فى البحر وضروب الحيل فى صيد الوحوش ، والطير والسمك ، والتصرف فى الصناعات ووجوه المتاجر ، والمكاسب وغير ذلك مما فيه صلاح أمر محياه فى هذه الدنيا فأعطى كل ما وصفناه من علمٍ ما يصلح به دينه ودنياه ، ومنع ما سوى ذلك مما ليس من شأنه ، ولا فى طبعه أن يعلمه كعلم الغيب ، وما هو كائن وبعض ما قد كان أيضاً كعلم ما فوق السماء ، وما تحت الأرض وفى لجج البحار ، وأقطار العالم وما فى قلوب الناس ، وما فى الأرحام وأشباه ذلك مما حجب عن الناس علمه فإنه ، وإن كان اناس ادّعوا علم هذه الأمور فقد تبطل دعواهم بما يتبين من خطئهم فيما يقضون عليه ويدعون علمه ، فانظر كيف أعطى الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه ، وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين لما فيه صلاحه .

ومما ستر على الإنسان علمه مدة حياته فإنه لو عرف مقدار عمره ، وكان قصيراً لم يتهن بالعيش مع ترقب الموت بل كان بمنزلة من قد فنى ماله ، أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر ، والوجل منه على أن الذى يدخل على الإنسان من فناء العمر أكثر مما يدخله من فناء المال ، لأن من فقد ماله يؤمل أن يستخلف عليه منه فيسكن إلى ذلك ، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس ، وإن كان طويل العمر عرف ذلك ووثق بالبقاء فانهمك فى اللذات والمعاصى ، وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره ، وهذا مذهب لا يرضاه الله سبحانه من العباد ، ولا يقبله .

ألا ترى أن العبد لو عمل على أن يسخط مولاه سنة ، ويرضيه يوماً أو شهراً لم يقبل ذلك منه ، ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتك ونصحك فى كل الأوقات وعلى كل الحالات .

فإن قلت : أو ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حيناً ، ثم يتوب فيقبل ذلك منه ؟

قلنا : إن ذلك شيء يكون من الإنسان بغلبة له من الشهوات ، ونزوعه عنها من غير أن يقدره فى نفسه ويبنى أمره عليه فيصفح الله عنه ، ويتفضل عليه بالمغفرة لمعرفته بضعف جوهره ، فأما من قدّره أمرُه على أن يعصى الله تعالى ما بداله ثم يتوب فى آخر ذلك فإنما يحاول خديعة من لاينخدع بأن يتسلف التلذذ فى العاجل ويعد بالتوبة فى الآجل لعله لا يفى بما يعد من ذلك فإن النزوع عن الترفه ، والتلذذ آيس من معاناة التوبة ، ولاسيما عند الكبر وضعف البدن فإنه أمرٌ صعب فكان لايؤمن على الإنسان أن يدافع التوبة حتى يرهقه الموت أو يعوقه عائق فيخرج من الدنيا غير تائب ، كما قد يكون على المرء دين إلى أجلٍ وهو يقدر على قضائه ، ولا يزال يدافع حتى يحل الأجل ، وقد نفد المال فيبقى الدين قائما عليه . فكان خير الأشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت فينكل عن المعاصى ويؤثر العمل الصالح .

فأن قلت : فما هو الآن وقد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم ؟ قلنا : إن وجه التدبير فى هذا الباب هو الذى جرى عليه الأمر فيه فإن كان الإنسان مع هذا لا يرعوى ، ولا ينصرف عن المساوئ ، فإنما ذاك من مرحه وقساوة قلبه لا من خطأ التدبير ، كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فإن كان المريضُ مخالفاً للطبيب لايعمل بما يأمره ، ولا ينتهى عما ينهاه عنه فلم ينتفع بصفته لم تكن الإساءة فى ذلك للطبيب بل للمريض حين لم يقبل ذلك منه ، ولئن كان الإنسان مع ترقبه الموت كل ساعة لايمتنع من المعاصى ، فإنه لو وثق بطول البقاء كان أحرى أن يخرج إلى الكبائر الفظيعة فترقبُ الموت على كل حال خير من الثقة بالبقاء .

ثم إن ترقب الموت ، وإن كان صنف من الناس ينهون عنه ، ولا ينتفعون به فقد ينتفع به صنف آخر من الناس فينزعون عن المعاصى ، ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالأموال ، والعقد النفيسة فى الصدقة على الفقراء والمساكين ، فلم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء من الانتفاع بهذه الخلة لتضييع أولئك حظهم منها .

فمزج صادقها بكاذبها فإنها لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة بل كانت فضلاً لا معنى لها فصارت تصدق أحياناً لينتفع بهذا الناس فى مصلحة يهتدى بها ، أو مضرة يتحرز منها وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد .

فكر فى هذه الأشياء التى تراها موجودة معدة فى العالم من أرب الإنسان ، فالتراب للبناء ، والحديد للصناعات ، والخشب للسفن ، والحجارة للإرحاء ، والنحاس للأوانى ، والفضة للمعاملة ، والجواهر للذخر ، والحبوب للغذاء ، والثمار للتفكه ، واللحوم للمآكل والطيور للتلذذ ، والأدوية للتصحح ، والدواب للحمولة ، والحطب للوقود ، والرماد للكلس ، والزبل للأرض وكم عسى أن يحصى المحصى من هذا وشبهه .

أفرأيت لو أن رجلاً دخل داراً فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس ، ورأى كل ما فيها مجموعة معدّة لإنسان معروفة أكان يتوهم أن هذا يكون بالإهمال من غير عمـد فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا فى العالم ، وما أعد فيه من الأشياء .

فكر فى أشياء خُلقت لمآرب الإنسان ، وما فيها من التدبير فإنه خلق الحب لطعامه ، وكلف طحنه ، وعجنه ، وخبزه ، وخلق له القطن ، والوبر لكسوته ، وكلف بندفه وغزله ونسجه ، وخلق له الشجر لفواكهه وكلف غرسه ، وسقيه ، والقيام عليه ، وخلقت العقاقير لأدويته ، وكلف لقطها ، وخلطها وصنعتها ، وكذلك تجد الأشياء على هذا المثال .

فانظر كيف كفى الخلقة التى لم تكن عنده فيها حيلة ، وترك عليه فى كل شيء من الأشياء موضع الحركة لما له فى ذلك من الصلاح ، لأنه لو كفى هذا كله حتى لايكون له فى الأشياء موضع شغل ، وعمل لما حملته الأرض أشر

وبطر ، وأبلغ ذلك كله به إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه ، ولو كفى الناس كل ما يحتاجون لما تهنوا بالعيش ، ولا وجدوا له لذة .

ألا ترى أن امرأً لو نزل بقومٍ فأقام حتى يكفى جميع ما يحتاج إليه من مطعمٍ ، ومشربٍ ، وخدمةٍ تبرم بالفراغ ، ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيءٍ ، فكيف لو كان طول عمره يكفى لا يحتاج إلى شيء ؟! فكان من صواب التدبير فى هذه الأشياء التى خلقت للإنسان أن يجعل له فيها موضع شغل لكيلا تبطره البطالة ، وليكفه الشغل عن تعاطى ما لا يناله ، ولا خير له فيه إن ناله . قال ابن شبرا فى حكمته : رأس معاش الإنسان الخبز والماء .

وهذا كما قال ولكن انظر كيف دبر الأمر فيهما فإن حاجة الإنسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز ، وذلك أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش ، والذى يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز ، فإنه يحتاج إلى الماء لشربه ، ووضوءه ، وغسل ثيابه وأوانيه وسقى أنعامه ، وزروعه فجعل الماء مبذولًا لايشترى بثمن لتسقط عن الإنسان المؤنة فى طلبه ، وتكلفه وجعل الخبز مقدراً لا ينال إلا بالحيلة ، والحركة ليكون للإنسان فى ذلك شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والعبث .

أما ترى الصبى يُدفع إلى المؤدب وهو طفل لما يكامل ذهنه فيعلم ذلك ليشغل عن اللعب والعبث الذى ربما خشى عليه ، وعلى أهله المضرة العظيمة ، وهكذا الإنسان لو خلا من الشغل يخرج من العبث والأشر إلى ما يعظم ضرره عليه ، وعلى من قرب منه ، واعتبر ذلك بمن نشأ فى جدة ورفاهية العيش وما يخرجه إليه الترفه والكفاية ، ولو كان الإنسان لايصيبه ألم ولا وجع ، أكان يرتدع عن الفواحش ويتواضع لله ، ويعطف على الناس ؟! ألا ترى أنه حين يعرض له وجعٌ تخضَّع واستكان ورغب إلى ربه فى العافية ، وبسط يده بالصدقة فلو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار ، ويذل العتاة المردة وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات ، وبم كان العبيد يذلون لأربابهم ، ويذعنون لطاعتهم أفليس فى هذا توبيخ للمعطلة الذين جحدوا التدبير ، والمنانية الذين نقموا الألم والوجع .

لو لم يلد من الحيوان إلا ذكور فقط ، أو إناث فقط ، ألم يكن سينقطع النسل ، وتبيد أجناس الحيوان ، فلم صار بعض الأولاد يأتى ذكراً وبعضها إناثاً إلا ليدوم التناسل ولاينقطع . لو رأيت تمثال إنسان مصور فى حائط فقال لك قائل : إن هذا ظهر من تلقاء نفسه ها هنا لم يصنعه صانع ، ألم تكن تستهزئ به ؟! فكيف ينكر هذا فى تمثالٍ كالخيال ولا ينكره فى الإنسان الحى الناطق ، لم صارت أبدان الحيوان وهى تغتذى أبداً لا تنمو أبداً بل تنتهى إلى غايةٍ من النمو ، ثم تقف لولا التدبير فى ذلك فإن من التدبير الحكيم فيها أن يكون أبداً إن كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت فى الكبر والصغر ، فصار ينمو حتى ينتهى إلى غاياتها ثم يقف والغذاء مع ذلك قائم لا ينقطع ، ولو كانت تنمو نمّوا دائما لعظمت أبدانها ، واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشىء منها حد معروف ، ثم كانت أجسام الإنس خاصة تستثقل عن المشى والحركة ، وتجفو[٥٣] عن الصناعات اللطيفة ، وتعظم المؤنة فيما يحتاج إليه للملبس ، والمضجع ، والتكفين فحسم هذا كله بأن جعلت تنمو حتى تنتهى إلى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها .

لم لا يتشابه الإنسان واحداً بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك فإنك ترى السرب من الظباء أو القطا تتشابه حتى لايفرق بين واحدٍ منها وبين الآخر . وترى الناس مختلفة صورهم ، وخلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان فى صفةٍ واحدةٍ ، والعلة فى ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحليتهم لما يجرى بينهم من المعاملات ، وليس يجرى بين البهائم مثل هذا فيحتاج إلى معرفة كل واحدٍ بعينه ، وحليته ألا ترى أن المتشابه فى الطير ، والوحوش ، لا يضرها شىء وليس كذلك الإنسان فإنه ربما تشابه التوأمان تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس فى معاملتهما حتى يعطى أحدهما مال الآخر ، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر ، وقد يحدث مثل هذا فى تشابه الأسماء فضلاً عن تشابه الصور ، فمن لطف هذه الدقائق التى لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب إلا من وسعت حكمته كل شىء . لم صار الرجل والمرأة إذا أدركا جميعاً نبت لهما

---

(٥٣) جفا الشىء يجفو جفاءً : كم يلزم مكانه ، والمراد : البُعد .

العانة ، ثم تنبت للرجل اللحية ، وتتخلف عن المرأة لولا التدبير فى ذلك فإنه دبر أن يكون الرجل قيماً ورقيباً على المرأة وتكون المرأة عرساً دخولاً له .

أعطى الرجل اللحية لما له فيها من العز والجلالة والهيبة ، ومنعت المرأة ليبقى فيها نضارة الوجه ، والبهجة التى تشاكل المفاكهة والمباضعة ، أفلا ترى الخلقة كيف يتم لها الصواب فى الأشياء فتعطى وتمنع على حسب الأرب والمصلحة ؟!

وصف الحكماء بأن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ، ولا تقصر عما فيه تمام الشىء فى طبقته ، والمحنة تشهد له بذلك فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الأشياء فلا مجاوزة لها ولا تقصر عنها ، وهذا ما قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب . فإن أوجبت للطبيعة الحكمة ، والقدرة على مثل هذه الأفعال فقد أقررت بما أنكرت لأن هذه هى صفة الخالق ، وإن أنكرت أن تكون هذه للطبيعة بدا وجه الحق يهتف بأن الفعل للخلاق العظيم الحكيم .

وقد كانت من القدماء طائفة أنكرت العمد والتدبير فى الأشياء ، وزعموا أن كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس وأفيقوروس وأناس من الطبيعيين ، فكان مما احتجوا بها هذه الآيات التى تولد على مجرى الطبيعة كالإنسان الذى يولد ناقصاً يداً ، أو زائداً أصبعًا ، أو يولد مشوهاً مبدل الخلق . قالوا : فهذا دليل ، على أن كون الإنسان ليس من تعمدٍ ولا تقدير بل لعرض وكيف اتفق أن يكون . فرد عليهم أرسطاطاليس وغيره من الفلاسفة فقالوا : إن الذى يكون بالعرض والاتفاق إنما هو شىء يأتى فى الفرط مرة لأعراض تعرض للطبيعة فتزيلها على سبيلها ، وليس بمنزلة الأمور الطبيعية الجارية على شكلٍ واحدٍ جرياناً دائماً متتابعاً ونحن نرى أصناف الحيوان تجرى على أكثر ذلك على مثالٍ ، ومنهاجٍ واحدٍ كالإنسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع ، وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس ، فأما ما يولد على خلاف ذلك فإنما هو لعلة تكون فى الرحم ، أو فى المادة التى منها ينشق الجنين كما قد يعرض فى الصناعات ، حتى تعمد الصانع الصواب فى صنعته فيعوق دون ذلك عائق من الفساد فى الأداة ، أو فى الآلة التى يعمل بها

الشيء ، وقد يحدث مثل ذلك فى أولاد الحيوان للأسباب التى وصفنا فيأتى الولد ناقصاً ، أو زائداً أو مشوهًا ، ويسلم أكثرها فيأتى سوياً لا علة فيه .

فكما أنه يحدث على بعض أعمال الصناعة لأعراض تعرض فيه ، ولا يجوز عليها أجمع الإهمال وعدم الصنعة ، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية العائق يدخل عليه لا يوجب على جميعها أن يكون بالعرض والاتفاق ، وقول القائل فى الأشياء أن كونها بالعرض والاتفاق من قبل أن شيئاً منها يأتى على خلاف الطبيعة حتى لعرض يعرض له خطأ وجهل .

فإن قلت : ولم صار هذا الحدث فى الأشياء ؟ قلت : إنه ليس كون الأشياء أيضاً باضطرار من الطبيعة حتى لايمكن أن يكون سواه كما قال القائلون بل هو بتقدير وعمدٍ من الخالق إذ جعل الطبيعة تجرى أكثر ذلك على مجرى منهاج معروفٍ وتزول أحياناً عن ذلك لأعراض تعرض لها فيستدل بذلك على أنها مصرّفة مدبرة فقيرة إلى إرادة الخالق وقدرته فى بلوغ غايتها وإتمام عملها .

اتخذ أناس هذه الآفات الحادثة فى بعض الأزمان كمثل الوباء ، واليرقان ، والبرد ، والجراد ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير .

فيقال فى جواب ذلك : إنه إن لم يكن خالق مدبر فلم لا يكون أكثر من هذا ، وأفظع من ذلك أن تقع السماء على الأرض وتهوى الأرض ، فتذهب سفلاً ، وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلا وتجف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة ، وتركد الريح حتى تختمر الأشياء ، وتفسد ويفيض ماء البحار على الأرض فيغرقها ، وهذه الآفات التى ذكروا من الوباء ، والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كل ما فى العالم بل تحدث فى الأحايين ثم لا تلبث أن ترفع ؟! . أفلا ترى أن العالم يصان ، ويحفظ من تلك الآفات الجليلة التى إن حدث شيء عليه منها كان فيه بواره ، ويلدغ أحيانا بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ، ثم لا تترك هذه الآفات أن تدوم بل تكشف عنهم عند القنوط منهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة .

قد تنكر المعطلة أيضاً ما أنكرت المنانية من المكاره والمصائب التى تصيب الناس فكلاهما يقول : إن كان للعالم خلاق رؤوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة ؟ والقائل بهذا القول يذهب إلى أنه ينبغى أن يكون عيش الإنسان فى هذه الدنيا صافياً من كل كدر ، ولو كان هذا هكذا لقد كان الإنسان سيخرج من الأشر ، والعتو إلى ما لايصلح له معه دين ولا دنيا كالذى ترى كثيراً من الأمراء المترفين ، ومن نشأ فى الجدة والأمن يمرحون حتى إن أحدهم ينسى نفسه أنه بشر مربوب ، وأن ضيراً يمسه أو مكروهاً ينزل به ، وإنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً أو يواسى فقيراً ، أو يرثى لمبتلى أو يتعطف على مكروب ، فإذا عضته المكاره ، ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيراً مما قد كان غافلاً عنه ، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه . والمنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة ، ويتسخطون المنع من الأطعمة الضارة ، ويتكرهون الأدب والعمل ، ويحبون أن يفرغوا للهو والبطالة ويباحوا كل مطعم ومشرب ، ولا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشوءوالسيرة والعادة ، وما تعقبهم الأطعمة الضارة من الأدواء والأسقام ، وما لهم فى الأدب من الصلاح وفى لأدوية البشعة من المنفعة ، وإن شاب ذلك بعض الكراهة ، فإن قالوا : ولم لم يكن الإنسان معصوماً حتى لايحتاج إلى تلديغه بهذه المكاره . قلنا : إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ، ولا يستحق للثواب عليها . فإن قالوا : وما كان يضره إلا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب بعد أن يصير إلى غاية النعم ، واللذة ؟ قلت : اعرضوا على امرىء صحيح الجسم والعقل أن يجلس منعماً ، ويكفى كل ما يحتاج إليه بلا سعى واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بل ستجدونه بالقليل عما يناله بالسعى ، والحركة أشد سروراً واغتباطاً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق ، وكذلك نعيم الآخرة إنما يكون لأهله بأن ينالوه بالسعى والاستحقاق ، والنعمة على الإنسان مضاعفة بأن فى هذا الباب أعد له الثواب الجزيل على سعيه فى هذه الدنيا وجعل له السبيل إلى أن ينال ذلك بسعى واستحقاق فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله .

فإن قالوا : أو ليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير ، وإن كان لا يستحقه فما الحجة فى منع ذلك من رضى أن ينال نعيم الآخرة على

هذه الجهة قلنا : إن هذا باب لو فتح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب والضراوة على الفواحش ، وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشةٍ أو يتحمل المشقة فى باب من أبواب البر لوثق أنه صائرٌ إلى النعيم لا محالة أو من كان يأمن على نفسه وأهله وماله لو أمن الناس والحساب والعقاب فكان ضرر هذا الباب سينال الناس فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، ثم كان يستوى الأبرار والفجار فى الدنيا والآخرة فيكون فى ذلك تعطيلاً للعدل ، والحكمة معاً وموضعا للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور فى غير مواضعها .

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس تعم البر والفاجر أيضاً ويبتلى البر ويسلم منها الفاجر فيقولون : كيف يجوز هذا فى التدبير من الحكيم ، وما الحجة فى ذلك ؟ فنقول فى جواب ذلك : إن الآفات ، وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعا بلا تمييز فإن الله تعالى يجعل فى ذلك صلاحاً للصنفين كليهما . أما الصالحون فلأن الذى لمسهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم فى سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر .

وأما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم ، ووزعهم عن المعاصى ، وعن الفواحش . وكذلك يجعل لمن سلم منها من الصنفين صلاحاً فى ذلك..

أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ، وأما الفجار فإنهم يعرفون رحمة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن أساء إليهم .

ولعلك تقول : أترك هذا فى الآفات التى تصيب الناس فى أموالهم ، أرأيت مايبتلون به فى أبدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحريق ، والسيل ، والخسف ما الحجة فى ذلك فنقول : إن الله تعالى يجعل فى هذا أيضاً صلاحاً للصنفين جميعاً أما الأبرار فلما لهم فى مفارقة هذه الدار من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها .

وأما الفجار فلما لهم فى ذلك من تمحيص أوزارهم وحسمهم عن الازدياد منها .

وجملة القول : أن الخالق تعالى يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة فكما أنه إذا قلعت الريح شجرة ، أو قصفت نخلة أخذها الصانع الرفيق فاستعملها إلى ضروب المنافع كذلك يفعل المدبر الحكيم فى الآفات التى تنزل بالناس فى أبدانهم وأموالهم فيصرفها أجمع إلى الخير والمنفعة .

فإن قلت : ولم يحدث على الناس مثل هذه الأحداث ؟ قلنا : لكيلا يركنوا إلى طول السلامة فيغلو الفاجر فى الركون إلى المعاصى ، ويفتر الصالح عن الاجتهاد فى البر ، فإن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس فى حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التى تحدث عليهم تذعنهم ، وتنبهم على ما فيه رشدهم ، ولو خلوا منها لغلوا فى الطغيان والمعصية كما غلوا فى أول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان ، وتطهير الأرض منهم .

ومما ينقمه الجاحدون للتدبير فى الموت والفناء فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغى أن يكون الناس مخلدين فى هذه الدنيا مبرئين من الآفات ، فقد ينبغى أن نسوق هذا القول إلى غايته فننظر ما محصوله . أفرأيت لو كان كل رجل دخل العالم ويدخله يبقون فلا يموت أحد منهم ألم تكن الأرض ستضيق بهم حتى تعوزهم المساكن ، والمزارع ، والمعايش ؟ أفليس لو كانوا لا يفنيهم أولاً فأولاً يتنافسون فى المساكن والمعاش ، وحتى تنشب بينهم فى ذلك الحروب وتسفك فيه الدماء ، وكيف تكون حالتهم لو كانوا يولدون ولا يموتون ؟! هذا إلى ما كان سيغلب عليهم من الحرص والشره ، وقساوة القلوب فإنهم لو وثقوا بأنهم لايموتون لما قنع أحدٌ بشيء يناله ، ولايفرح أحدٌ عن شيء ينيله ، ولا يفرح عن شيء سيناله . ولا يسألون عن شيء يحدث عليهم ثم كانوا يملون الحياة ، وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى يتمنى الموت ، والراحة من الدنيا .

فإن قالوا : إنه كان ينبغى أن ترفع عنهم المضار والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت فلا يتوقوا إليه فقد وصفنا ما كان هذا مخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا .

فإن قالوا : إنه كان ينبغى أن لا يتوالدوا ، كى لايضيق عليهم المساكن ، والمعايش قلنا : إذاً كانوا يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم ، والاستمتاع بنعم

الله ، ومواهبه فى الدارين جميعا إذا لم يدخل العالم إلا قرن واحد لا يتناسلون ، ولا يتوالدون . فإن قالوا : كان يخلق فى ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ، ويخلق إلى انقضاء العالم رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن ، والمعاش عنهم ، ثم لو كانوا لايتوالدون ، ولا يتناسلون ذهب موضع الإنسان بالقرابات ، وذوى الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد ، وموضع تربية الأولاد والسرور بهم ففى هذا دليل على أن ما تذهب إليه الأوهام سوى ما جرى به التدبير خطأ وسفال من الرأى والقول . ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى ، فيقول كيف يكون ههنا تدبير ، ونحن نرى الناس فى هذه الدنيا من عزيز ، وضعيف فالقوى يظلم ، ويغضب ، والضعيف يُظلم ويُسأم الخسف ، والصالح فقير مبتلى ، والفاسق معافى موسع عليه فمن ركب فاحشة ، وانتهك محرمًا لم يعاجل بالعقوبة فلو كان فى هذا العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم ، وكان الصالح هو المرزوق ، والطالح هو المحروم ، وكان القوى يمنع من ظلم الضعيف ، والمنتهك للمحارم يعاجل .

فنقول فى جواب ذلك إن هذا لو كان هكذا لذهب ، موضع الاختيار والتجربة التى فضل بها الإنسان وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقة بما وعد الله منه ، ولصار الناس بمنزلة الدواب التى تساس بالعصا ، والعلف ويلمع لها لكل واحد منها ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ، ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أو عقاب حتى كان يخرجهم من حد الإنسية إلى حد البهائم التى لا تعرف ما غاب ، ولا تعمل إلا على الحاضر ، وكان يحدث منها أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل الصالحات للرزق والسعة فى هذه الدنيا ، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش ، إنما يعفو عن ذلك لترقب عقوبة نازلة تنزل به من ساعة حتى تكون أفعال الناس كلها تجرى على الأمر الحاضر لا يشوبها شئ من اليقين بما عند الله ، ولا تستحق ثواب الآخرة ، والنعيم الدائم فيها مع أن هذه الأمور التى ذكرها الغنا والفقر ، والعافية والبلاء ليست بجارية على أفعال القياس أبداً بل قد تجرى أحياناً على القياس ، والأمر المفهوم فقد نرى كثيراً من الناس الصالحين يرزقون المال لضرب من التقدير ولكن لايسبق إلى قلوب الناس أن الفساق هم المرزوقون ، والأبرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح ، ونرى كثيراً

من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم ، وعظم ضررهم على الناس وعلى أنفسهم كما عوجل فرعون بالغرق ، وبنو إسرائيل بالتيه ، وبختنصر بالقتل . وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة ، وأخر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض أيضاً فلا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما أخروا وتعجيلهم ما عجلوا داخلاً فى صواب الرأى والتدبير .

ثم نقول أيضا : إنه كان القياس يوجد والشواهد تشهد بأن للأشياء خالقاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه فإنه لا يصح فى القياس أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا لإحدى خلال ثلاث : إما عجز ، وإما جهل ، وإما شرارة ، وكل هذا محال فى صفة الخالق القديم تعالى ذكره ،وذلك أن العاجز لايستطيع أن يأتى بمثل هذه الخلائق العجيبة الجليلة ، والجاهل لايهتدى لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لايتطول بخلقها وإنشائها .

فإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة وإن كنا لا ندرك كنه ذلك التدبير ، ومجاريه فإن كثيراً من تدبير الملوك أيضاً لا يفهمه العامة ، ولا تعرف أسبابه لأنه لايعرف داخلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وجد صواباً قائماً على القياس والمحنة .

لو شككت فى قوة بعض الأدوية ، والأطعمة فتبين لك من وجهين أو ثلاثة أنه حارٌّ بارد ألم تكن تقضى عليه بذلك ، وتنفى الشك فيه عن نفسك فما بالك لاتقضى على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة ، وأكثر منها مالا يحصى كثرة .

لو كان نصف ما فى العالم مشكلاً صوابه لما كان من حزم الرأى وسنة الأدب أن تقضى على العالم بالإهمال لأنه لو كان فى النصف الآخر وما يظهر من فيه الصواب والإتقان ما يزع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية فكيف وكل ما فيه إذا فتش وجد على غاية الصواب حتى إنه لا يخطر بالبال شىء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه .

أعلمت ما اسم العالم بلسان اليونانية فإن اسمه جارى المعروف باليونانية قَوْسَموس وتفسير فوسموس الزينة ، وكان المسمى له بهذا الاسم فيما يزعمون فيثاغوروس الفيلسوف ، ثم جرى عليه الفلاسفة والناس من بعد .

أفكان الحكماء والفلاسفة يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام مع أنهم لم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً ، حتى سموه زينة ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والإتقان فى غاية الحسن والبهاء .

العجب من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ ، وهم يرون الطبيب يخطىء ويقضون على العالم بالإهمال ، ولايرون شيئاً مهملاً ، ولا تتعجب من الجلف الجافى (دوسى) حين جهل موضع الحكمة فى الخلق حتى أرسل لسانه بالذم له ولكن تعجب من المخذول (مانى) الذى ادّعى أنه أوتى علم الأسرار حيث عمى عن دلائل الحكمة فى الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك وتعالى الحكيم الكريم .

وأعجب من هذين جميعا المعطلة الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لايدرك بالعقل فلما أعوزهم ذلك خرجوا إلى الجحود والتكذيب قالوا : ولم لايدركه العقل . قلنا : لأنه فوق مرتبة العقل كما لايدرك البصر ما هو فوق مرتبته . فإنك لو رأيت حجراً يرتفع فى الهواء لعلمت أن رامياً رمى به ، وكان الذى أراك البصر من ذلك ذهاب الحجر علوّا فأما علمك أن راميا رمى به فليس من قبل البصر بل من قبل العقل ، لأن العقل هو الذى يميز فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه ، أفلا ترى كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوزه فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه .

قالوا : فلسنا نعقله إذا ، قلنا: بلى عقل إقرار وليس عقل إحاطة كما قد يعلم الإنسان أن فيه نفساً ، وهو لا يعانيها ولا يدركها بحاسة من الحواس ، ومن أمثال ذلك أيضاً النقطة التى لا جزء لها فإنها تجب فى العقل باضطرار من قبل أنه لابد من أن يكون بدء الخط من نقطة ، ولا يمكن أن تظهر للحس لأن النقطة الواقعة تحت الحس متجزئة لا محالة .

وكذلك يقول أصحاب علم الهندسة أن المثلثة الصحيحة هى التى يوجبها القياس باضطرار فأما المخطوطية فالخطوط الواقع عليها الحس فلا يخلو من أن يدخلها شيء من الخلل ، وإن اجتهد مجتهد فى إقامتها .

وعلى حسب هذا نقول : إن العقل يعرف الخالق من جهة العبرة ، والدلالة لا من جهة الحسن والإحاطة ، وبالجملة إنه يعرفه من جهة ما يوجب عليه الإقرار به ، ولا يعرفه من جهة ما يوجب الإحاطة بصفته .

قالوا : فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته والعقل اللطيف لايحيط به ؟

قلنا : إنما يكلف العباد من ذلك فى طاقتهم أن يبلغوه ، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمرهم ، ولم يكلفوا الإحاطة به وبصفاته كما أن الملك لايكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير ؟ وأبيض هو أم أسمر ؟ إنما يكلفهم الإذعان لسلطانه والانتهاء إلى أمره .

ألا ترى أن رجلاً لو أتى باب ملك فقال : اعرض علىّ نفسك حتى أتقصى معرفتك ، وإلا لم أسمع لك كان قد أحل بنفسه العقوبة فهكذا القائل أنه لايقر بالخالق حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه .

قالوا : أفليس قد نصفه ، فنقول : هو العزيز الحكيم الجواد . قلنا : كل هذا صفات إقرار واعتراف وتثبيت ، وليست بصفات إحاطة ، فإنا نعلم أنه حكيم ، ولا نحيط بكنه ذلك منه .

وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السماء ولا ندرى ما جوهرها ونرى البحر ولا ندرى أين منتهاه بل هو فوق هذه الأمثال مالا نهاية له لأن الأمثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل إلى معرفته .

قالوا : فلم نختلف فيه ؟ قلنا : لقصر الأوهام عن مدى عظمته ، وتعديها إقرارها فى طلب معرفته ، وإنما تروم الإحاطة به ، وهى تعجز عن ذلك فيما دونه .

فمن ذلك هذه الشمس التى نراها تطلع على العالم كل يوم ، ولا نقف على حقيقة أمرها ، ولذلك كثرت الأقاويل فيها ، واختلفت الفلاسفة المذكورون فى وصفها فقال اركمندروس : هى فلك أجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج ، والشعاع .

وقال كسيومانيس : هو اجتماع أجزاء نارية يدفعها البخار الرطب .

وقال أركسمانيس : هو سحابة ملتهبة .

وقال فيلاغوس الفيثاغورى : هو جسم زجاجى يقبل نارية العالم ، ويرسل عليها شعاعه .

وقال الاسطوانقون : هو جوهر لطيف يتصعد من البحر .

وقال أفلاطون : هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار .

وقال أرسطاطاليس : هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة .

ثم اختلفوا فى شكلها أيضاً . فقال راكسمانيس : هو بمنزلة صفيحة عريضة .

وقال الاسطوانقون : هى كالكرة المدحرجة .

وقال أرسطاطاليس مثل ذلك .

وكذلك اختلفوا فى مقدارها ، فزعم انكسمندوس : أنها مثل الأرض سواء .

وقال انكسيمانس : بل هى أقل من ذلك .

وقال انكساغورس : هى أعظم من الجزيرة العظيمة .

وقال أبرقليطوس : هى مقدار قدم الإنسان .

وقال أصحاب الهندسة : هى أضعاف مائة وسبعين مرة من الأرض .

ففى اختلاف هذه الأقاويل منهم فى الشمس التى يقع عليها البصر ، ويدركها الحس دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها ، فإذا كانت هذه الشمس التى يقع عليها البصر ، ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها منكم ، فبالحرى ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم .

قالوا : ولم استتر ؟ قلنا : إنه لم يستتر بحيلة تخلص إليها كمن يحتجب عن الناس بالأبواب والستور ، إنما معنى قولنا أنه استتر أنه لطف عن مدى مايبلغه الأوهام كما لطفت النفس ، وارتفعت عن ارتفاعها بالبصر .

فإن قلت : لم لطف وتعالى كان ذلك خطأ من القول ، لأنه لايليق بالذى هو علة كل شىء إلا أن يكون فائقاً لكل شىء متعالياً عن كل شىء . قلنا : إن الذى تطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه : أولها : أن ينظر أموجود هو أم ليس موجوداً ؟ والثانى : أن يعرف ما هو فى ذاته وجوهره . والثالث : أن ينظر كيف هو وما صفته ؟ والرابع : لماذا ولأية علة فليس فى هذه الوجوه شىء يمكن المخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته خلا أنه موجود فقط فأما ما هو وكيف هو فيمتنع عليه كنهه وكمال المعرفة به . وأما لماذا فهو ساقط فى صفة الخالق لأنه علة كل شىء وليس شىء بعلته .

ثم ليس علم الإنسان بأنه موجود وجب له أن يعلم ما هو وكيف هو كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب له أن يعلم ما هى وكيف هى وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة .

قالوا : أفرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم ؟ قلنا : كذلك هو من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه ، والإحاطة به ، وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب إذا استدل عليه بالدلائل الشافية .

وقد قال أرسطاطاليس فى الجواب شبيهاً بهذا القول فى كتابه الذى سماه مابعد الطبيعة فإنه وصفه بهذه الصفة فقال هو قريب بعيد فإنه من جهة كالواضح لايخفى على أحدٍ ، ومن جهة كالغامض لايدركه أحد فكذلك العقل أيضاً ظاهر شواهده ، ومستتر فى ذاته فلا ينكر أحد أن يقول فى صانعه وبارئه نحو ما قيل فيه .

فهذا منتهى جميع ما فى هذا الكتاب من الدلائل على الخلق ، والتدبير ، وهو قليلٌ من كثيرٍ ، وجزءٌ من كلٍ فأما العلم الكامل فعند الخلاق العليم الحكيم له الشكر كثيراً دائماً مباركاً فيه تم الكتاب ..

قال كاتبه فى آخره ما نصه :

وهذا حين أتينا على آخر كتاب الدلائل والاعتبار تأليف أبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على رسوله محمد وآل الطيبين الطاهرين وكان الفراغ من رقمه فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاثة وعشرين بعد الألف . اهـ .

فهرس محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩٦٠ / ١٩٩١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-5211-10-7

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN